جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

قضايا إسلامية
سلسلة تصدر
غرة كل شهر عربى

# الإسلام رؤية حضارية

أ . د . محمد عبد الستار نصار

العدد [ ٥١ ]

غرة جمادى الأولى ١٤٢٠هـ - الموافق أغسطس ١٩٩٩م

يشرف على إصدارها

الدكتور / **محمود حمدى زقزوق**

وزير الأوقاف

ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الدكتور / **عبد الصبور مرزوق**

نائب رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

# علـى سبيـل التقـديم

أ. د عبد الصبور مرزوق

نائب رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

## حضارة القيم وتكريم الإنسان

*******

فرق كبير بين أن يغير الإنسان طريقة حياته فى المأكل والمشرب والسلوكيات المختلفة فى التعامل فينتقل بها جميعاً من مظهر إلى مظهر .

وبين أن يتغير الإنسان من داخله بحيث لا يرتقى مظهراً وإنما يرتقى فى الذات والجوهر. ويرتفع عن عنصر " الطين " الذى هو أساس خلقته ، ويتسامى بتأثير نفخة الروح التى هى هبة الله لآدم وبنيه والتى بسببها تميز الإنسان وارتقى حتى أُمرت الملائكة بالسجود له كما جاء فى قوله سبحانه : ﴿ **إذ قال ربك للملائكة إنى خالق**

**بشرا من طين * فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾**[1].

فى هذا الفرق الكبير تغيير « الماديات » والمظاهر ..

وبين تغيير الذات وما بالنفس يكمن الفارق بين الرؤية الحضارية للإسلام وبين غيرها من الرؤى المادية المعاصرة ، التى عنيت بشموخ المبانى لتطاول السحب ، وعُنيت برفاهية الإنسان حتى لكأنه يعيش على الأرض فى الجنة ، فأركبته سفن الفضاء حتى وطىء القمر ..

لكنها مع هذا كله بل وبهذا كله أفرغته كليةً من عطاء الروح ، وأطفأت الجذوة الربانية التى بوهجها يرتقى من حال الطين إلى معارج النور فبات كالوحش فى الغابة لايعيش إلالشهوة البطن والفرج، ولايستجيب إلا لنوازع الغضب التى ينسى فيها كل قيمة وكل معنى إنسانى

---

(١) ص : ٧١ ـ ٧٢ .

فيلقى على المستضعفين قنابل الإبادة النووية فى هيروشيما ونجازاكى ويهلك الحرث والنسل ويستبقى آثار الإشعاع تصب ويلاتها على كل حىّ عبر السنين الطوال ..

وبعد هذا كله يزعمون أنهم متحضرون !! وأن حضارتهم هى التى ستسود العالم فى الألفية القادمة ..

***

وهنا أقول ..

يا ويل الإنسان إن هيمنت عليه حضارة هذا البلاء العظيم ..

ويا ويل الإنسان إن هيمن عليه هؤلاء الفراعنة الجدد ؟

ومرة أخرى هنا أقول ..

إن حضارة الإسلام هى وحدها شاطىء السلام والأمن لكل كائن حىّ ، للإنسان والحيوان والطير ، هى حضارة التغيير الداخلى لنفس الإنسان حتى ترتقى عن معطيات

الطين الذى هو أصل الخليقة إلى حيث ترتقى إلى حقيقة الإنسانية فى الإنسان ..

وكمثال لذلك أسوق قصة ذلك البدوى الذى أرهقه الحر والعطش فى الصحراء . فرأى بئراً فنزلها وشرب حتى ارتوى .

فلما خرج صادف كلباً يلهث ( يأكل الثرى من العطش ) فقال البدوى فى نفسه وقد تحركت إنسانية الإنسان وحالة التسامى من عطاء الروح : قال البدوى :

[ لقد بلغ هذا الكلب من الظمأ مثل الذى كان بى ]

ثم نزل البئر فملأ خفه وسقى الكلب وظل ينزل ويصعد حتى اطمأن إلى أن ما بالكلب من العطش قد زال ..

هنا يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : قد اطلع الله على هذا فغفر له . نعم تلك هى الروح المتحضرة التي فرضت هذا السلوك التلقائى لتصنع موقفاً نبيلاً وتعاطفاً بين الأحياء وإن لم يكونوا من عالم الإنسان ..

***

يقابل هذا موقف الطيار الأمريكى الذى دمر المدن فى اليابان وأهلك الحرث والنسل ولم تهتز فيه شعرة إشفاق أو تتحرك بين جانبيه عاطفة إشفاق على الذين تفتك بهم قنابله وتبقيهم أكثر من قرن ما يزالون يعانون من ويلات الإشعاع الذرى ..

***

وإذا شئنا المقارنة الموضوعية بين حضارتهم وبين حضارة الإسلام فسيكون الإسلام أعلى كعباً وأعظم عطاء لمفهوم الحضارة فى كل شئون الحياة ..

فى عقيدة « التوحيد » إذا قورنت إلى الوثنية أو « التثنية والتثليث » .

فى قضايا الحرب والسلام حيث العدوان محظور ، والحرب أصلاً دفاعية ، مع تسليم الإسلام بأنها ضرورة بشرية فقد أحيطت بضوابط صارمة تحميها من العنف ومن جنون الغضب حيث لايقتل - فى الإسلام طفل

ولا شيخ ولا امرأة ولا يروّع راهب فى صومعته ولا عابد فى محرابه ، وحتى لا يقتل الشباب ما دام لا يحمل السلاح ، ولا يجوز فى الإسلام الإجهاز على الجريح ولا التمثيل بجثة القتيل وغير ذلك .

وفى علاقة الإنسان بالمال نرى أروع وأرقى ما تحلم به البشرية حيث ينظر إلى المال فى الإسلام على أنه مال الله وما دام مال الله فكل عيال الله من خلق الله لهم حق فى هذا المال وإن كانوا غير مسلمين ، ما داموا يستظلون براية الإسلام .

هذا إلى تحريم «الربّا» وبلاؤه فى الخلق مشهور وبغيض ، مع تحريم السرقة والغصب والاحتكار وغيرها من كل ما يوقع الفقير فى حالة عبودية لأصحاب الثروة من الأغنياء .

بل إنه لأول مرة فى تاريخ « المال » ينزل المال من عليائه وتقيد أنيابه بقيد أخلاقى يفرض على مالك المال

والمتعامل به أن يحصل عليه من حلال وأن ينفقه فى حلال ...

***

والشىء نفسه فى قبول « التعددية » والتعايش مع الآخر وإن كان على غير دين الإسلام .

ومثله الطابع الإسلامى فى العلاقات الدولية التى تقوم على المثلية المقرونة أساساً بالمودة والتعاون ما لم يكن هناك عدوان أو غدر أو خيانة .

***

أما شئون الأسرة فى الإسلام - فإنها - رغم ما يثرثر به المشاغبون والكارهون - هى أعظم وأنبل وأعدل علاقة قوامها أن يكون الزواج هو أسلوب وأساس تكوين الأسرة وفق التعليمات والضوابط والإطار العام الذى يحدد لكل طرف من الزوج والزوجة والأبناء حقوق وواجبات كل

منهم فى إطار عام يجعل قيادة السفينة فى يد واحدة حتى لا تلعب بها الأمواج .

***

ولو مضينا نتتبع العطاء الحضارى للإسلام ما وسعنا الزمان ولا المكان ..

لكننا نقرر - وبطمأنينة كاملة أن العالم وهو يخطو نحو الألفية الميلادية الثالثة لن يجد أمنه واستقراره ولن يجد العدل ولن يظفر بالحق والحرية إلا فى ظل حضارة الإسلام .

ولهذا كان حرص المجلس الأعلى للشئون الإسلامية على إصدار هذه الدراسة القيمة التى نسأل الله أن ينفع بها

**والله من وراء القصد ،،،**

**وهو حسبنا ونعم الوكيل ،،،**

**أ.د/ عبد الصبور مرزوق**

نائب رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

## مدخل إلى الدراسة :

لم تكن طبيعة الإسلام " العالمية " أمراً عفوياً ، أو مسألة تهدف إلى ما تهدف إليه بعض التصورات السياسية التى ادعت يوماً إمكانية تصدير منظوماتها الفكرية والسياسية إلى كل أصقاع المعمورة مما عرف باسم " الأممية" بل إن عالمية الإسلام ناشئة من طبيعته الذاتية ، وفوق ذلك كانت تتطلبها عوامل تاريخية ، بعد أن انحرفت " اليهودية " عن خطها المستقيم الذى شرعه الله سبحانه وتعالى لها ، وبلغه أنبياء بنى إسرائيل إليهم .

ذلك الانحراف الذى أملته عوامل كثيرة ، لعل أبرزها العامل العنصرى الذى ادعوا بمقتضاه أنهم شعب الله المختار الذى تجرى فى عروقه الدماء الزكية ، وأن من سواهم من الأميين هم من طبيعة أدنى من طبيعتهم ، ومن ثم قالوا فى حقهم كما صور القرآن الكريم :

**﴿ ليس علينا فى الأميين سبيل ﴾**[1] وهذا كذب صريح كما عقب بذلك الكتاب العزيز .

وتعرضت " المسيحية " لبعض الانحراف بعد أن تخللتها وثنيات الفكر اليونانى أحياناً ، أو صورت على درجة غير مقبولة من الناحية العقلية فى بعض قضاياها ، كعقيدة الخطيئة الكبرى ، وما فى مستواها من العقائد التى لا تثبت أمام النقد العلمى الصحيح .

وإذا كان هذا شأن الدينين السماويين اللذين سبقا مجىء الدين الخاتم " **الإسلام** " فليس هناك شك فى أن تكون الديانات الوضعية - وهى التى لا يحتفظ لها أنصارها بالتقديس الذى يكون لأنصار الدين السماوى - أدخل فى باب الانحراف ، فى معيار الدين الصحيح

---

(١) آل عمران : ٧٥ .

والعقل الصريح [1] ...

وقد يكون من باب توكيد ما نحن بصدده ،أنه من الناحية النظرية المنطقية يمكن أن يقال : لو ظلت لليهودية والمسيحية قدرتهما على مواجهة مطالب " بنى إسرائيل " المادية والروحية على السواء ولو كان هذا أيضاً شأن بقية الديانات الوضعية لكان مجيء الإسلام بهذه الصورة ضرباً من تحصيل الحاصل ، وهو عبث لا يليق بالحكيم ، لأن الحق سبحانه وتعالى قرر قاعدة هامة فى تبرير اتصال السماء بالأرض لتبليغ رسالة من رسالاته ، بقوله **﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾** [2] ...

---

(١) لعل أو فى مصدر فيما قرأت من الكتب الحديثة التى تحدثت عن أحوال العالم قبل مجيء الإسلام مباشرة - كتاب " ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين " للعلامة أبى الحسن الندوى" ، حيث عبر عن تلك الأحوال بدقة نادرة فى فصل الإنسانية فى الاحتضار ،فليرجع إليه . ط . قطر ١٩٨٦م .

(٢)الأنعام : ١٢٤ .

أجل !!! لقد كان الأثر الروحى الذى ينبعث من بعض النفوس والقلوب المخلصة - قبل مجىء الإسلام مباشرة أشبه مايكون بذبالة ذات ضوء خافت فى ليلة مظلمة توشك العواصف الهوجاء أن تقضى عليه ، ولعل من أبرز الوثائق التى تدل على ذلك ما ذكرته بعض دواوين السنة عن قصة سلمان الفارسى ، حيث خرج يهيم على وجهه فى البلاد ، ترفعه أرض وتخفضه أخرى لارتياد العلم الصحيح والدين الحق ، ولم يزل يتنقل من الشام إلى الموصل ومنها إلى نصيبين ثم إلى عمورية ليلتقى بمن ينشد بينهم ضالته ، حتى أدركه الإسلام فوجد فيه النور الذى ظل يسعى للاستضاءة به[1]...

إذن الإنسانية فى القرن السادس الميلادى كانت تتطلع

---

(١) الرواية بطولها رواها الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس عن سلمان الفارسى ، كما رواها الحاكم فى مستدركه والرواية سندها متصل ، ورواتها عدول ، وتعتبر من أوثق الروايات التاريخية عن الجاهلية وحالتها الدينية .

- بلسان الحال - إلى دين يملأ عليها فراغها الروحى ، وينتشلها مما أضحت فيه من فوضى خلقية واجتماعية ويهديها إلى غايتها ، ويعيد لها كرامتها بعد أن دغدغتها الأنظمة التى أعطت لنفسها سلطانا يتجاوز سلطان صاحب الحق المطلق فى غيبة القيم العليا مثل : الحرية - العدالة - الإخاء - المساواة ، ولم تكن الحياة المادية الحضارية إلا قشرة هشة يحياها القياصرة والأكاسرة ، ومن يلوذ ببلاطهم ، وتخفى فى الواقع أمراضاً اجتماعية كانت سبباً مباشراً إلى الإسراع فى الدخول إلى الإسلام عندما ظهر وانتشر لأن قيمه التى جاء لكى يبشر بها كانت ملائمة تماما لمطالب الإنسان من حيث هو إنسان ، بغض النظر عن جنسه ولونه ومعتقداته كما سنبين ذلك .

## طبيعة الإسلام كمنطلق حضارى:

يحدد هذا البحث طبيعته على الفهم المباشرلحقائق الإسلام كمنطلق حضارى ولا يدخل فى أعماق ما أفرزه العقل الإنسانى فى هذا المضمار لينتقى منه أحسن

النماذج ، التى يمكن أن يشاكل بينها وبين الإسلام ، إذ ليس ذلك من طبيعته ، كما أنه من ناحية أخرى يكون تكراراً لجهود سبقت فى هذا السبيل ، ولما كان التكرار واجترار أفكار سبقت فى أية ناحية من نواحى البحث العلمى ، مما يأباه الطبع المستقيم فقد حرصت ألا يكون هذا العمل صورة مسبوقة .

وأبرز النقاط التى يمكن أن تفيد فى هذا المقام هى التى تتعامل مع الإسلام من حيث طبيعته " العالمية " تلك التى يشير إليها مثل قوله تعالى : **﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾**[1] وعالمية الإسلام تعنى عالمية الزمان وعالمية المكان وعالمية المعالجة ، وأقصد بالأخيرة : أن ما أفرزه الإسلام من أحكام ليعالج بها الطبيعة الإنسانية حتى تستقيم على طريق الرشد والصواب ، لم تكن جزئية ولا مبتورة بل يمكن أن يقال فى اطمئنان : انها

---

(١) الأنبياء : ١٠٧ .

تناولت كل مطالب النفس البشرية علاجاً ووقاية وحسب الدارس دليلاً على صحة ما نقول إن " الإيمان " انتظم فى مفهومه العام - فى منظور الإسلام - أعلى درجاته التى تشكل المحور الأول الذى يدور حوله وفى فلكه كل ما سواه ، وهو قضية " التوحيد" وأدنى عمل يتصوره الإنسان ، كإماطة الأذى عن الطريق ، وبين هذا وذاك تندرج كل أعمال وأقوال وأفكار خيرة ، تفيد الإنسان فى رقيه الأدبى والمادى ... عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ " [ **الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة ، فأفضلها قول " لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان** ] .[1]

---

(١) ذكر البخارى فى صحيحه هذا الحديث عن عبد الله بن محمد عن أبى عامر الفقدى عن سليمان بن بلال عن عبد الله بن دينار عن أبى صالح بن أبى هريرة ( بلفظ بضع وستون فقط ) . انظر : كتاب الإيمان ص ٦٧ جـ ١ صحيح البخارى ط ، القاهرة سنة ١٩٨٦م ، والرواية التى معنا ذكرها مسلم فى صحيحه فى باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وأفضلية الحياء ، انظر : صحيح مسلم ص ٣ جـ ٢ ط دار إحياء التراث بيروت .

ويمكن أن نفهم من هذا الحديث : أن العدد المذكور ليس إلا كناية عن كثرة شعب الإيمان ، وهذه حقيقة يزكى إدراكنا لها ، أن طبيعة هذا الدين قد وسعت مفهـــوم " العبادة " حتى تجاوز ذلك المفهوم الضيق الذى حصرته فى الأديان والديانات السابقة عقيدة وقولاً وممارسة .

إن العمل فى الإسلام إذا كان وفق التوجيه الذى جاء به هذا الدين - وهو لا يجىء إلا بما يفيد الإنسان من حيث هو فى حاله ومآله - إنما يكون عبادة دينية ولو كان متصلاً بشئون الحياة ، وهذه المسألة مرتبطة بنظرة هذا الدين للحياة نفسها ، فهى فى منظوره ينبغى أن تكون مسرحاً لإنتاج كل ما هو خير يرقى به الإنسان فى جوانبه المادية وأشواقه الروحيـة حتى يحقق الرسالة التى من أجلها خلـق وبسبـبها وجد **﴿ وما خـلقت الجن والإنـس إلا ليعبدون ﴾** [1] .

---

(١) الذاريات:٥٦ .

فإذا أردنا استكمال الصورة حتى تؤكد ما نحن بصدده ، فإن التوجيه الإلهى يسعفنا فى هذا المقام ، لقد تكررت فى القرآن الكريم آيات " التسخير " التى منها يظهر أن الكون بكل مستوياته ، إنما خُلق لصالح الإنسان ، جوامده - نباتاته - حيواناته - سماؤه - أرضه ، وحسب القارئ أن يتلو صدر سورة " النحل " حتى نهاية الآية التاسعة عشرة ليدرك إلى أى حد كانت عناصر الكون مذللة طائعة ، كعامل حاسم فى رقى الإنسان وتحضره فى إطار إيمانه بالواهب الرازق ، وفى حدود مسئوليته كمخلوق يمثل " الخلافة " عن الحق سبحانه وتعالى ، وكعنصر استحق وحده إسجاد الملائكة له ، وكموجود تحمل أمانة التكاليف حين عُرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها .

إن الآيات التى أشرنا إلى قراءتها تتداخل فيها عناصر الصورة : عنصر " الواهب " مع عنصر " الموهوب له " مع عنصر الموهوب نفسه " وفى الأخير عنصر " الغاية " التى

من أجلها كان هذا العرض الصحيح الأخاذ ، إذ ينتهى المشهد بقول الحق تبارك وتعالى ﴿ **أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون * وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم** ﴾ [1] ...

إن الآيات فى سياقها إنما جاءت لتؤكد ما يأتى :

١) إيقاظ الإنسان نحو الوعى بعناصر الكون ، وأنها جاءت لرسالة هى إعمار الحياة الإنسانية وترقيها ، وليس هناك حد أعلى لهذا الترقى ، وفى هذا تنبيه للغافلين الكسالى ، الذين يؤثرون حياة الخمول المادى والروحى ، فتكون حياتهم مسرحا لصراع دام ، وبخاصة حياتهم الداخلية التى تصيب الإنسان حين يفقد توازنه ، فلا يدرك ما تحت أنظاره ، فيحيا حياة دون حياة البهائم والأنعام .

٢) الربط الحقيقى بين عقل وقلب الموهوب له ( الإنسان ) والواهب « الله سبحانه وتعالى » وذلك بنصب « الموهوب »

---

(١) النحل : ١٧ ، ١٨، والآيات كلها معرض لإبراز بعض ما وهبه الله ، وسخره للإنسان كدلالات على خالقه .

كدليل وشاهد على أن الله سبحانه وتعالى هو « الخالق » وأن ما سواه من الآلهة المزعومة التى لا تضر ولا تنفع ، ولا تخلق ، ليست آلهة فى الحقيقة والواقع ، وأن التقليد الذى أوحى إلى من اتخذوهم آلهة ، كان عقبة فى سبيل إدراك الصفات والخصائص التى ينبغى أن يكون عليها الإله الحق .

٣) المحصلة من هذا : استئناف النظرة الصحيحة التى تربط بين عناصر الصورة وإدراك الهدف منها ، وهو تجاوز الحياة القاتمة التى لا يعرف فيها الإنسان حقيقة خالقه وفاطره ، كما لا يدرك مركزه فى هذا الكون ، والغاية القصوى من وجوده ، ومتى صحح النظرة وولى وجهه شطر حياة آملة طاهرة نظيفة فإن ذلك يعنى : رقيه الروحى والأدبى والمادى ، وأن ما اقترفه من إثم يوم قصر فى نظرته قبل أن يأتيه هذا التوجيه الراشد . فإن الله وحده هو الذى يغفره له ، ليفتح باب الأمل من جديد ، ويطرد عن نفسه اليأس والقنوط اللذين يدمران الحياة .

فإذا أضفنا إلى هـذه الآيـات التـى صدرت بـها سـورة « النحل » والتى سيقت فى أسلوب يعرضها كمنافع للبشر، حتى ترقى بها حياتهم - كما أسلفنا - ولتكون دليلاً على الخالق - كما بينا أيضاً - آيات أخرى تفيد فى هذا المقام جاء الخطاب فيها فى بعض مقاطعه بصيغة الأمر، كقوله تعالى : ﴿ **فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحـون**﴾ [1] .. وقوله ﴿ **هو الذى جـعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور**﴾ [2].

فإن هذا كله يؤكد ما سبق أن أشرت إليه من أن هذا الدين فى طبيعته يحمل مقومات الحضارة الإنسانية

---

(١) الجمعة : ١٠ ، وقد جاءت الآية بصيغة الأمر بعد الأمر بالسعى إلى ذكر الله مما يؤكد أن العمل للدنيا هو امتداد لذكر الله .

(٢) الملك : ١٥ ، وقد ربطت الآية بين الأمر بالمشى فى الأرض لإعمارها بالخير وبين المحاسبة على ذلك « وإليه النشور » .

لا بالمفهوم المادى الذى نراه فى حضارة اليوم، وفى حضارات الأمم السابقة كحضارة عاد وثمود وإِرَمَ ذات العماد ، وكحضارة الفراعنة والأشوريين والبابليين وغيرهم ، تلك التى قامت فى معظمها على إبراز الجانب المادى كأساس حضارى وما سواه كان تابعاً له ، أو إن شئت فقل : كان الجانب الأدبى والروحى فيها مرتبطاً بأسس غير صحيحة فى أغلبها ، كما أن الاستغلال والسخرة كانا بارزين جداً فى إقامة الجانب المادى[1] . . بينما نلاحظ أن مفهوم الحضارة فى الإسلام يأخذ طابعاً جديداً وتصوراً فريداً إذ تصطبغ فيه المادة بالروح ، ويمتزج المحسوس بالمعقول ، وتتعانق فيه المطالب المادية بالأشواق الروحية ،

---

(١) انظر : الفخر الرازى ، التفسير الكبير ج١٦ ص١٦٩ ط٣ - دار الفكر - لبنان سنة ١٩٨٥ ، وكذا : سيد قطب : فى ظلال القرآن ج ٦ ص ٣٧٠ فى تفسير قوله تعالى « وفرعون ذى الأوتاد . الذين طغوا فى البلاد . فأكثروا فيها الفساد » لترى صور التسخير التى استغلت من قبل الطغاة فى تشييد الحضارات القديمة ، مما يؤكد أن الحضارة الصحيحة : هى التى تلبى أشواق الإنسانية الروحية بجانب مطالبها المادية بمنهج متعادل منضبط .

وكيف لا يكون الحال كذلك ، وقد جاءت آيات القرآن الكريم صريحة فى أن « الإنسان » وإن كان مركز الكون ودائرته - على اعتبار أن ما سواه مسخر له كما أظهرت الآيات السابقة - إلا أن عناصر الكون سواه وإن كانت لا تعقل كما يعقل - فى أغلبها - فإنها عابدة لخالقها ، مسبحة بحمده ، وصدق الله العظيم إذ يقول : **﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ﴾**[1] .

---

(١) الإسراء : ٤٤ ، ويلاحظ أن الآية ذكرت السموات والأرض ومن فيهن وكان هذا كافياً فى بيان المقصود من أن الكون كله عابد لله خالقه ، غير أنها أعادت تأكيد هذا العموم فى إبراز لفظ « شىء » على سبيل التنكير الذى يفيد العموم فى صيغة « القصر » إلا يسبح بحمده » كأنها تشير إلى أن رسالة الأشياء كلها هى كذلك ، فما بالك بالإنسان الذى خلقت له هذه الأشياء - هذا إذا لم يكن داخلاً تحت عموم « شىء » وأما إذا كان داخلاً فتعنى الآية أن هذه هى رسالته التى جاء من أجلها وأن استغلاله للطاقات التى وهبت له فى إطار التوجيه الإلهى : هو ذكر لله وتسبيح بحمده .

إن هذا المعنى العميق لتعادلية الإسلام فى بنائه الحضارى بالمفهوم الشامل والصحيح ، قد أدركه بعض الباحثين المنصفين حين طرح عن نفسه قناع التعصب - الأمر الذى هداه إلى إعتناق هذا الدين ، بعد أن كان واحداً فى موكب المستشرقين الذين ينظرون -غالبا- إلى الإسلام على أنه دين متهم ، وأعنى به/الدكتور محمد أسد - ليوبولدفايس قبل أن يسلم - يقول فى ذلك : « إن الإسلام نهج من الحياة ، حسب قوانين الطبيعة التى سنها الله لخلقه ، وما عمله الأسمى سوى التوفيق التام بين الوجهتين: الروحية والمادية فى الحياة الإنسانية ، وإنك لترى هاتين الوجهتين فى تعاليم الإسلام تتفقان فى أنهما لا تدعان تناقضاً أساسياً بين حياة الإنسان الجسدية وحياته الأدبية فحسب ، ولكن تلازمهما هذا وعدم افتراقهما فعلاً ، أمر

يؤكده الإسلام إذ يراه الأساس الطبيعي للحياة » .[1]

إن الباحث حين يصدع بالحق الذى يراه أمام ناظريه واضحاً جلياً ، يكون قد حقق الغاية المطلوبة من منهجية البحث العلمى ، أما إذا تنكب هذا الطريق ، فإن أحكامه تكون لا وزن لها ، من ثم نحن لا نحفل بتلك الأحكام التى لا تقوم على التصور الكامل والصحيح لحقيقة الإسلام ،

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق . ص ١٨ ـ ط ٢ ـ دار العلم ـ بيروت سنة ١٩٤٨ وقد أقر الدكتور محمد أسد فى نفس الكتاب بالحقيقة التى أشرت إليها من أن الإسلام فى نظر كثير من الغربيين دين متهم فقال : « إن أبرز المستشرقين الأوروبيين قد جعلوا من أنفسهم فريسة للتحزب غير العلمى فى كتاباتهم عن الإسلام ويظهر فى جميع بحوثهم على الأكثر ، كما أن الإسلام لايمكن أن يعالج على أنه موضوع فى البحث العلمى ، بل على أنه متهم يقف أمام قضاته ، إن بعض المستشرقين يمثلون دور المدعى العام الذى يحاول إثبات الجريمة ، وبعضهم يقوم مقام المحامى فى الدفاع ، فهو مع اقتناعه شخصياً بإجرام موكله لا يستطيع إلا أن يطلب له مع شيء من الفتور ـ اعتبار الأسباب المخففة . انظر ص٤٧ من الكتاب المذكور .

وطبيعته كمنهج حضارى ، ولو لم يكن الإسلام فى طبيعته هكذا ، لما استرعى أنظار المنصفين من الباحثين ممن استشهدنا بواحد منهم آنفا ، ونضيف هنا عنصراً آخر اطلع على الإسلام بعين الباحث المنهجي فانتهى إلى ما انتهى إليه من قبل « محمد أسد » وقد تعمدت أن يكون هذا العنصر من النساء ليمكننا القول بأن العقل عندما يتحرر من دائرة التبعية والتقليد فإنه يتمكن - حينئذ - من الرؤية الحقيقية للأشياء بصرف النظر عن كونه عقل ذكر أو أنثى ، تقول الدكتورة « لورافيشيا فاغليرى » أستاذة اللغة العربية وتاريخ الحضارة الإسلامية بجامعة نابولى بإيطاليا ، فى كتابها المترجم تحت عنوان « دفاع عن الإسلام » : إن علينا أن نقدم أعمق إعجابنا إلى دين لا يكتفى بنظرية ملائمة لمطامح الطبيعة البشرية ، وبإقامة شريعة تتألف من أسمى القوانين التى يستطيع الإنسان الحياة وفقها ، ولكنه يذهب إلى أبعد من ذلك فينادى بفلسفة للحياة

دين يقيم مبادىء الأخلاق الأساسية على قواعد نظام إيجابى ، دين يفرغ واجب الإنسان نحو نفسه ونحو الآخرين فى قواعد دقيقة قابلة للتطوير وملائمة لأسمى الترقى الفكرى . [1] . . .

وإذا كانت مقومات الحضارة تتلخص فى :

١) مبادىء نظرية قابلة للتطبيق تهدف إلى صالح الإنسان ورقيه ، تكفل إشباع ضروراته الروحية والمادية ،

٢) آليات عقلية وتجريبية تستطيع استغلال الطاقات المادية وتسخيرها لخدمة الإنسان ورفاهيته .

---

(١) صـ٩٣ ، وتقول فى هذا الكتاب تصويرا للنظرة العدائية غير الصحيحة للإسلام التى تشكل تصور أكثر الباحثين الغربيين ومن شايعهم « زعم بعض الكتاب الغربيين أن الأخلاق الإسلامية خطرة على الفرد لأنها حافلة بروح الخضوع والاستسلام السلبى للقوة الإلهية » ثم ترد قائلة : وإن الإسلام لم يكن قط عقبة فى سبيل الكمال الخلقى ، ليس هذا فحسب ، بل يملك فى ذات نفسه قوة فعالة موجهة نحو الأفعال الحميدة ، انظر صـ ٧٥ ، ٧٦ من الكتاب المذكور .

٣) مادة أولية تكون محل تجارب الإنسان ، يمكن تطويعها واستغلالها لصالحه .

٤) الزمن الذى يكون وعاء آنيا لاستغلال الطاقة المادية عن طريق الطاقة البشرية .

٥) أهداف عليا دافعة إلى ترقى الحياة وتطويرها بتوازن واتساق ، حتى لا يطغى جانب من الجوانب التى ينبغى أن تشبع فى الإنسان على الجانب الآخر .

٦) النظرة الحقيقية من الإنسان لعلاقاته الصحيحة بنفسه وبمجتمعه وبالقوة اللامنظورة وراء المنظور المادى للكون، وقيام تلك العلاقات على أساس صحيح .

أقول : إذا كانت هذه هى مقومات الحضارة فهل ينكر عاقل أن ديناً جاء ليرقى الإنسان فى جانبيه : الروحى والمادى - والإسلام هو ذلك الدين - يمكن أن يكون من حيث طبيعته منهجاً حضارياً بالمفهوم الصحيح ؟

أجل !! إن الأحكام التكليفية التى جاء بها الإسلام سواء

منها ما يتعلق بالاعتقاد أم بالعبادات أم بالآداب والمعاملات ، أم ما كان موجهاً لطاقات الإنسان لاستغلال عناصر الكون ، التى هى أشبه ما تكون بالناقة الذلول ، يمكن أن تُفهم على أنها ضوابط حضارية ، إذ هى فى الواقع لا ترجع آثارها الإيجابية فى حالة تنفيذها ولا آثارها السلبية فى حالة الإعراض عنها ، إلا إلى الإنسان نفسه ، لأن الذى شرعها غنى عن العالمين ، لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين ، قال تعالى **﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد﴾**[1].

ولنقف قليلاً عند كل مقوم من المقومات التى سلفت ، حتى نرى وجهة الإسلام الحضارية والروح التى تسرى فى كتابه الخالد « القرآن الكريم » تلك التى تتخذ من الإنسان

---

(١) فاطر : ١٥ .

محور حديثها فى جانب الأوامر والنواهى والتوجيهات ».

## أولاً : المبادىء النظرية :

جعل الإسلام " الإيمان " بوجود الله ووحدانيته" سبحانه وتعالى مدخلاً طبيعياً وأساساً تقوم عليه بقية المبادىء الأخرى من اعتقادية وغيرها ، ويقرر هذه المسألة بما يغذى العقل والقلب والشعور والوجدان حيث يشتق من العالم الواقعى المشاهد ، ومن مكنونات النفس البشرية الأدلة الواضحة على وجود الله ووحدانيته ، على غرار ما جاء فى قوله تعالى : **﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾**[1]..

وفى نصب الحق سبحانه وتعالى للآيات الآفاقية والأنفسية ما يشعرنا بأن الإسلام يتغيا إقامة الإيمان فى

(١) فصلت: ٥٣.

النفوس والقلوب بطريقة اختيارية قائمة على التعقل والإدراك الصحيح ، وأنه بهذا يستنكر أن تقام العقائد على أساس من التقليد أو القسر والإجبار ، لأنها إذا قامت على ذلك لا تكون عقائد صحيحة ، وبالتالى لا تستقر فى العقول والقلوب ، ومن ثم رأينا الإسلام ينازل جميع من أدركهم من أهل الديانات والاعتقادات السابقة فى معركة سلاحها الدليل والبرهان لا التقليد والمحاكاة ، ولا النظر القاصر الذى لا يرقى إلى مستوى إدراك العلاقة الصحيحة بين الإنسان والكون وخالق الكون ، تلك التى تجلت لدى من عارضهم القرآن الكريم من الطوائف التى ذكرها فى قوله تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شىء شهيد** ﴾[1] ... إن التقليد أو النظر

---

(١) الحج : ١٧ .

الفاسد ، يترتب عليهما نتيجة ليست لصالح الإنسان ، من حيث أنه كائن امتاز بالنظر والعقل والإدراك الحقيقى للعلاقات الصحيحة . لهذا السبب رأينا بعض الطوائف ترى ضرورة الربط بين التقليد والكفر ، طالما أن المقلد له قدرة على التفكير الصحيح ، أما صاحب النظر الفاسد فإن الوصف الذى أسقطوه عليه هو وصف " الجهل " [1] وحسبهما - المقلد ، ومن فسد نظره ، هذان الوصفان فى معنيهما ودلالتيهما .

إن سياقات القرآن الكريم توضح بجلاء أن الإيمان بالله سبحانه وتعالى ينبغى أن يملأ القلوب والأفئدة والمشاعر والوجدان ، ولا يكون كذلك إلا إذا كان سبيل ذلك الدليل الصحيح ، من ثم نرى القرآن يطلب من المؤمن أن يبنى إيمانه بوحدانية الله على العلم ﴿ **فاعلم أنه لا إله إلا الله** ﴾[2].

---

(١) انظر كتابنا : العقيدة الإسلامية جـ١ ص٤٩ ،٥٩، ط أولى - القاهرة ١٩٨٢م .

(٢) محمد : ١٩ .

ويقرر فى الشهادة على وحدانيته ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط** ﴾ [١].... بل إنه يقرر أيضاً أن العلم بحقيقة الكون بكل عناصره يقود صاحبه إلى ميدان الخشية من صاحب الكون ومدبر أمره ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود * ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور** ﴾ [٢].

ومما لا شك فيه أن المراد بالعلماء هنا - بعد سرد تلك الظواهر الكونية - أوسع من أن يحصر فى نوع واحد منهم ، بل إن الآيتين تفيدان بمنطوقهما أن الباحثين فى

---

(١) آل عمران: ١٨ .

(٢) فاطر: ٢٧، ٢٨ .

ميدان العلوم الكونية بكل مستوياتها ، كذا فى ميدان العلوم الإنسانية ، الذين يكتشفون سنن الله سبحانه وتعالى فى كونه تلك السنن التى عبر عنها العلم بالقوانين التى تحكم الظواهر هم المعنيون هنا بأنهم أشد الناس خشية وتقوى لأنهم يعاينون قوانين الله فى خلقه بطريقة عملية مباشرة ، من ثم يتأكد لكل ذى عقل أن العلم فى الإسلام دين ، وأن الدين فيه علم [1]..

---

(١) من أحسن ما قيل فى هذا المقام ما ذكره الدكتور عماد الدين خليل فى تقديمه لكتاب " حدود العلم " لسوليفان : فقال : ويبقى العلم - بعد هذا كله - يداً واحدة لا تستطيع أن تمضى بالحياة قدما صوب الكمال ، وتبقى الحاجة الملحة إلى اليد الأخرى يد الدين إذا ما أرادت البشرية تحركاً جاداً صوب الأحسن والأرقى .. والأحرى أن نقول بأنه التيار الواحد الذى يلتقى فيه ويمتزج ويتداخل العلم والدين وتنمحى الثنائيات التى جاءتنا من الغرب ولم نذق لها طعماً فى تجربتنا مع الإسلام ، حيث يكون الدين علماً إلهياً شاملاً ، وحيث يغدو العلم ديناً . انظر : العلم فى مواجهة المادية : قراءة فى كتاب حدود العلم لسوليفان ص ٧ ، ٨، ط مؤسسة الرسالة - بيروت سنة ١٩٨٧م .

## ثانياً : آليات المنهج الحضارى فى الإسلام:

يفسح الإسلام للعقل الإنسانى مكاناً بارزاً فى تطوير الحياة وترقيها فى إطار مشروعية استغلالها على الصورة التى يريدها الحق تبارك وتعالى ، وفى استحثاثه على استغلال طاقاتعالم" الشهادة" المتوافق مع قدرات الإنسان وملكاته ، دليل واضح على ذلك وعلى الشكل الذى سقنا له آية (الجمعة :١٠) وآية (الملك : ١٥) وما أحل الله للإنسان من الأشياء أكثر مما حرمه ، بل إن هناك قاعدة شرعية الإباحة ما لم يرد فى الشرع ما يحرمه ، وفى حديث " تأبير النخل " الذى قال فيه الرسول ﷺ : [ **أنتم أعلم بأمر دنياكم..**] [(١)].دليل آخر يعطى للخبرة والتجربة الإنسانية دورهما فى قيادة الحياة نحو الخير والكمال ، يضاف إلى ما تقدم: ذلك التوجيه المباشر الذى قال فيه الرسول ﷺ:

---

(١) روى مسلم فى صحيحه عن أنس أن النبى ﷺ مر بقوم يلقحون فقال : لو لم تفعلوا لصلح قال فخرج شيصاً ، فمر فقال : أنتم أعلم بأمر دنياكم " حديث رقم ٢٣٦٣.

[ إذا قامت القيامة على أحدكم وفى يده فسيلة واستطاع أن يغرسها فليغرسها ][1] ثم أخيراً تلك المشاهد التى تقرر قيمة العمل الصالح ، بكل مستوياته كحقيقة تقرن بالإيمان الصادق [2].. أى منهج - حينئذ - يمكن أن ترقى به حياة الإنسان - إن تجاوز ذلك المنهج الذى ترتبط فيه الدوافع النفسية فى داخل الإنسان بحياته الظاهرية ؟ أهو ذلك الذى يلبى فى الإنسان مطالبه المادية بعيداً عن أشواقه الروحية ، كما هو الحاصل فى كل الحضارات المادية على مدار التاريخ [3]... أم هو

---

(١) رواه أحمد فى مسنده بلفظ " إن قامت القيامة على أحدكم وفى يده فسيلة فليغرسها ، وفى رواية له أيضاً : إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل جـ٣/١٩١ .

(٢) مثل قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ الكهف : ٣٠.

(٣) يقول المرحوم الدكتور محمد إقبال : " إن الإنسان العصرى - الذى آثر الحياة المادية فقط - وقد أعشاه نشاطه العقلى كف عن توجيه روحه إلى الحياة الروحانية الكاملة .. فهو فى حلبة الفكر فى صراع صريح مع نفسه وهو فى مضمار الحياة الاقتصادية فى صراع مع غيره .. فأصبح مقطوع الصلات بأعماق وجوده " انظر : تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ص ٢١٥ ط ٢ القاهرة ١٩٦٨ .

المنهج الذى يؤثر الهروب من الحياة ويلوذ بصوفية قائمة ذات وجه عبوس ، ترى خلاص الإنسان فى فراره من الدنيا على الوجه الذي رأيناه لدى أصحاب الاتجاه المتشائم فى نظرتهم إلى الحياة، والمذاهب الصوفية الهندية تصور هذا الاتجاه أصدق تمثيل[1]...

إن الإسلام قد كفى الإنسان التفكير فيما سوى العالم المادى من الأمور الغيبية ، فقد جاء الوحى ببيانها ، وفى هذا توفير لكثير من طاقات العقل البشرى التى صرفها فى مجال " الميتافيزيقا " وقد كانت الحضارة اليونانية خير ممثل لهذا الاتجاه ، وإذا كان الأمر هكذا فإن قدرات الإنسان واستعداداته - فى المنظور الإسلامى - ينبغى أن

---

(١) أثرت الصوفية الهندية فى الحياة الاجتماعية إلى حد بعيد كاد يشل الحياة كلها لأنها فقدت توازنها مع معالجة قضايا الإنسان ، وجرت وراء سراب التطهر الروحى والنفسى المغرق فى تجاوز الطاقة الإنسانية ، وكان هذا الاتجاه وليد فكرة خاطئة عن الطبيعة الإنسانية التى أصلها الشر لديهم.

تتوجه إلى العالم المادى ، تكشف القوانين التى تحكمه وتستغل طاقاته بما ترقى به الحياة وفى نفس الوقت تربط تقدمها وعروجها نحو الأفضل بخالق هذا الكون ، ومدبر أمره ، المانح الحقيقى للحياة كلها .

ومما يلفت النظر هنا أن الترقى الحضارى - كما يرى الإسلام - ينشأ عن تفاعل العقل مع عالم المادة تفاعلاً طبيعياً ، وليس نتيجة صراع المتناقضات ، كما يرى " هيجل[1]..

## ثالثاً: المواد الأولية :

الكون كله بكل عناصره مسخر للإنسان ، وآيات القرآن الكريم تستعمل هذا اللفظ " لتحفز الإنسان إلى اكتشاف طريقة استغلاله ، وفى هذا الإيحاء يكون السعى الدؤوب وراء البحث عن القوانين والسنن التى تمكنه من

---

(١) انظر : عبد الحميد صديقى : تفسير التاريخ ص ٦٤ ط دار القلم - الكويت سنة ١٩٨٠.

الوصول إلى هدفه ، فيكون العلم الذى يقوده نحو الحضارة. ومن الأمور اللافتة للنظر أن تكون ملكيات الدول والأفراد لبعض العناصر تشكل دائرة ضيقة جداً إذا قيست بالعناصر الشائعة كالهواء والماء والطاقة الشمسية والجبال .. إلخ ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن الكون مع سعته وامتداده لم يستغل منه إلا الجزء اليسير جداً ، وأن الحق تبارك وتعالى قد أوحى إلينا بأنه : ﴿ **يزيد فى الخلق ما يشاء** ﴾ [1] ليبين لنا من هذا كله كيف أن الإسلام يملك زمام الإنسان وحضارته بتوفير العناصر التى بها يسمو مادياً بجانب الآداب والأخلاق التى حث عليها ليرقى دينياً وأخلاقياً كذلك إنه من خلال ما ذكرنا وما لم نذكر من بعض الآيات القرآنية مثل قوله تعالى : ﴿ **وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم** ﴾ [2] يظهر أن معطيات الإسلام لبناء حياة

---

(١) فاطر : ١ .    (٢) الحجر : ٢١ .

حضارية ، أوفر مما فى أيدينا بكثير ، وبهذا تسقط دعاوى أولئك الذين يتصورون أن المواد الأولية فى الكون فى طريقها إلى التناقص نظراً للكثرة المطردة فى عدد السكان [1].

إن الإسلام يربط إمداد الله سبحانه جل شأنه لعباده بالخيرات التى بها يسعدون ، بالإيمان والتقوى ، وإن لديه المزيد من هذا العطاء كماً وكيفاً ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ..** ﴾ [2] وفى

---

(١) تذهب بعض الاتجاهات فى دراسة الاقتصاد إلى القول بأن الموارد الاقتصادية فى العالم سيأتى عليها يوم لا تتكافأ مع مطالب السكان ، من ثم ينادون بضرورة الحد من النسل ، وهذا الاتجاه لم يقدم إحصائيات دقيقة على دعواه ، وخير بحث ظهر فى الرد على أنصاره بعنوان "صناعة الجوع - خرافة الندرة " لمؤلفه " فرانسيس مولارييه " ترجمة أحمد حسان ، نشر سلسلة عالم المعرفة - الكويت سنة ١٩٨٣ .

(٢) الأعراف : ٩٦ ، وجاء فى عجز الآية قوله تعالى: ﴿ **ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون** ﴾.

المقابل يرينا ماذا حدث لأقوام أمدهم بعطائه ، غير أنهم أعرضوا عن الإيمان بمن وهبهم فبطرت معيشتهم فأخذهم الله بذنوبهم فأصبحت مساكنهم خربة لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً : **﴿وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون.. ﴾**[1].

فإذا أضفنا إلى ما تقدم كيف أن الإسلام جعل للأموال - بكل صورها من نقدية أو أصول ثابتة أو منقولة - رسالة اجتماعية فى حدود مصلحة الفرد كذلك ، فإنه يتأكد لنا ، إلى أى مدى حرص الإسلام على رقى الحياة الإنسانية ، ومما يزيد الأمر تأكيداً أن المصالح المرسلة والاستحسان والعرف العام تدخل ضمن أصول التشريع الأساسية ، بعد القرآن والسنة والإجماع والقياس ،

---

(١)النحل:١١٢.

كما أن هذا الأخير فيه ما يشير إلى أن الإسلام يقرر ضبط حركة الحياة على سنن قويمة ، مع دفعها نحو التقدم والتحضر .

## رابعاً : الـزمـن :

حين يحدد الإسلام أن لكل إنسان على ظهر هذه الحياة أجلاً محدداً لا يتخطاه ، كما أن الأمم كذلك ، وحين يصور الحياة الدنيا على أنها سبيل إلى حياة أخرى خالدة ، وأن سعى الإنسان ونشاطه فيها هو الذى يمنحه نوع الجزاء الذى يستحقه ، فإن هذا يعنى مسئوليته الكاملة عن الزمن كقيمة كبرى تقع من خلالها نشاطات الإنسان المختلفة ، إذن ليس الزمن فى التصور الإسلامى آنات متعاقبة ، تمضى دون دلالة لوجودها ، بل إنه تيار يمكن استرجاع موجاته حين يكون لذلك قيمة فى ترقى الحياة وتطورها وليس ما تخلل القرآن الكريم من قصص السابقين وماحدث لهم إيجاباً أو سلباً إلا ضرباً من هذه العملية العميقة ، كما أن دعوته إلى تخطى الحاضر

والمستقبل إلى استحضار مواقف الجزاء فى جانبيه : النعيم والعذاب ، ليست إلا تأكيداً على قيمة الزمن ، واستغلاله إلى أقصى درجات الطاقة الإنسانية بما تعمر به الحياة الدنيا ، وبما يكون سبيلا الى حياة أخرى فيها نعيم مقيم ، لقد تحدث القرآن الكريم عن قوم ضاع منهم الزمن ، حين ظنوا أن سعيهم من خلاله فى أن يشبعوا رغباتهم دون ضابط أو محاسب ، ولا يكون ذلك الا إذا غاب عنهم الوعى التام بحقيقة دورهم فى الحياة وعلاقتهم بخالقها ، إنهم الأخسرون أعمالاً حتى لو كانوا أشد الناس كدحاً وكفاحاً ، وحتى لو هيأت لهم تصوراتهم المريضة أنهم يحسنون صنعا ، قال تعالى : **﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً * الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾**.[1]

---

(١) الكهف: ١٠٣: ١٠٤.

ثم إن المسئولية عن الزمن بارزة جدا فى الإسلام ، حين يصور الرسول الكريم ذلك المشهد الذى سوف يحدث فى الآخرة ويتخطى به حجاب الوجود ، حتى يوقظ وعينا نحو القيمة الحقيقية له ، فيقرر [ **لن تزولا قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن علمه ماذا فعل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه**][1] ..

## خامساً: الأهداف العليا:

تتجاوز الحياة الإنسانية - فى الواقع وفى نظر الإسلام كذلك - وجود الجمادات ، والحياة النباتية والحياة الحيوانية ، إلى أن تستقر على وضع يليق بالإنسان ،

---

(١) رواه الترمذى بلفظ قريب من هذا ، وقال معقباً عليه : هذا حديث حسن صحيح وللمفكر المسلم « مالك بن نبى » كتابات جادة فى هذه النقطة فى كتابه الممتاز « شروط النهضة » مبحث « من التكديس الى البناء » صـ ٤٠ ط دار الفكر دمشق ١٩٨٦ .

وحين يستشعر حقيقة وضعه ورسالته التى جاء من أجلها يكون قد حقق معنى وجوده ، ذلك الذى أهل من أجله لأن يكون خليفة عن الله سبحانه وتعالى فى أرضه ، وليس هناك من هدف أسمى من شعوره بذلك ، وليس هناك من عمل حقيقى إلا الذى يدفعه إلى تحقيقه لهذا الهدف ، إن الحياة الإنسانية ـ حينئذ ـ تكون ذات معنى ، ويؤكد هذا الذى نقوله ، تصور الحياة بعيدة عن أهدافها العليا وعن قيمة الإنسان فيها حين تغيب عنه رسالته التى من أجلها خلق وبسببها وجد ، لقد عبر عن هذه الحياة القاتمة المظلمة أحد الفلاسفة المعاصرين الذين ضلوا الطريق الحقيقى الذى يصل بالإنسان الى أهدافه الكبرى وغاياته العظمى وأعنى به : « برتراند رسل » لقد تحدث عن الاتجاه المادى عموماً أمام دور الإنسان فى الحياة ، ذلك الدور الذى غابت فيه الأهداف العليا والقيم العظيمة « يقول فى ذلك » والإنسان وليد عوامل ليست بذات أهداف ، وإن بدءه ونشوءه

وأمانيه ومخاوفه ، وحبه وعقائده ، كلها جاءت نتيجة تركيب رياضى ، اتفاقى فى نظام الذرة ، والقبر ينهى حياة الإنسان ولاتستطيع أية قوة إحياءه مرة أخرى [(١)] .

إن حياة الإلحاد تضيق بأهلها وإن توفرت لهم كل المطالب المادية ، وإلا فكيف نفسر سر الانتحار وضيق الصدور فى البلاد التى ترتفع فيها معدلات الدخول من الناحية المادية ، كالسويد مثلاً :

إن القرآن الكريم - وهو كلام الله سبحانه وتعالى خالق النفوس والأعلم بما يداويها - قد عبر عن هذه الحياة التى عبَّ فيها الإنسان من المادة حتى ثمل ، ولم يرتق الى إدراك دوره الحقيقى فى الوجود « بالمعيشة الضنك » ، وفى نفس الوقت أبرز لنا السبب الذى جعلها كذلك ، قال تعالى:

**﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا**

---

(١) انظر : وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى صـ٤١ طـ٩ مؤسسة الرسالة - بيروت سنة ١٩٨٥ .

**ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رَبِّ لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾** [1].

إن الإسلام يبعث فى الحياة الأمل والطمأنينة والإشراق، ذلك لأنها كانت للإنسان كى يعمرها بالخير ، وأن كفاحه فيها إذا كان كذلك ، فإنها ستكون مرقاة الى حياة أخلد وأدوم ، يجنى فيها ثمرة ماقدم ، وما أروع ذلك البيان الذى تتضح من خلاله معالم الحياة الآخرة ، حين يجعل الدنيا ودرجة الكفاح فيها ونوعية ذلك الكفاح تنبىء بما يمكن أن يكون للإنسان فى حياة الخلود وقدصدق الله العظيم حين قال : **﴿ ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ﴾** [2] هذا فى الجانب السلبى ، وأما فى الجانب الإيجابى فنقرأ فيه مثل قوله تعالى : **﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات**

---

(١) طه : ١٢٤ ـ ١٢٦ . (٢) الإسراء : ٧٢ .

**الفردوس نزلا * خالدين فيها لا يبغون عنها حولا ﴾**[1]

إن الإسلام حين يقرر أن خلق « الإنسان » لم يكن عبثا ، وأن مرجعه الى الله ليحاسب على ماقدم فى هذه الحياة ، كماً وكيفاً يعطى للحياة الإنسانية قيمة كبرى ، ويظهر من هذا أيضاً أن قضية « البعث » و « الحساب » فوق كونها قضايا مرتبطة بأصول العقيدة ، هى أيضاً تشكل ضماناً أخلاقياً ممتازاً فى ظله يحيا الإنسان مترقبا ذلك الموقف الدقيق ، فتنشط مشاعره الأخلاقية ، ويعطى لأفعاله معنى أخلاقياً ، بها تزدهر الحياة وتعمر بالخير ، وصدق الله العظيم اذ يقول ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم** ﴾[2] حقاً إن الفكر الدينى الصحيح هو فكر الضوء والأمل ، الموت والحياة فيه مرتبطان بأهداف معينة ، وكل القيم والأفكار

---

(١) الكهف : ١٠٧ ، ١٠٨ .

(٢) المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦ .

الإنسانية السامية تجد لها مكانا فيه ، كما يقول المفكر المسلم وحيد الدين خان .[1]

## سادساً: العلاقات الصحيحة:

حين يقدم الإسلام تصوراً لحياة الإنسان الداخلية ، عندما ينفعل بهذا الدين أنفعالاً حقيقياً ، نلاحظ أنه يقدمه بعيدا عن الثنائية أو التعددية ، أعنى بذلك : أن الإسلام يزكى فى المسلم فضيلة المراقبة لله سبحانه وتعالى ، تلك التى تجعل كل أعماله مصطبغة بروح دينية عميقة حتى ولو كانت فى مظهرها عملاً دنيوياً ـ كما ألمحنا إلى ذلك من قبل ـ وهنا يظهر المسلم واحدى الشخصية فهو يكون مع الله حين يؤدي شعائر العبادة المعروفة ، وهو معه كذلك حين يؤدى عمله فى الحياة ، على أى مستوى يكون ذلك العمل ، ومن ثم لاتتوزع شخصيته بين مالله وما

---

(١) الإسلام يتحدى : ص١٤١ ، مرجع سابق .

لغيره ، بل يكون دائماً مع الله سبحانه وتعالى ، إن هذه الحالة قد عرفت فى الإسلام باسم « الإحسان » وقد جاء فى الحديث الصحيح [..**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**] (١) . إن المسلم حين يدرك هذا المعنى فى ذاته تتحدد علاقاته مع غيره ، على وضع صحيح ، سواء أكان ذلك الغير ممن يشاركونه فى الإنسانية ، أم من العوالم الأخرى ، عالم الجماد ، وعالم النبات والحيوان ، أما عالمه الإنسانى فتحدد علاقته فيه على عدة أسس هى :

١ ـ علاقة قرابة النسب والإيمان معاً .

---

(١) الحديث بتمامه أورده مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن عمر عن أبيه رضى الله عنهما من حديث جبريل عليه السلام حين جاء الى الرسول ﷺ وطلب منه أن يخبره عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة انظر : صحيح مسلم : كتاب الإيمان جـ١ صـ١٥٧ ط دار إحياء التراث العربى ـ بيروت .

٢ ـ علاقة قرابة الإيمان وحده .

٣ ـ علاقة المشاركة فى المعنى الإنسانى وحده .

وفى كل واحدة من هذه العلاقات يحدد الإسلام للمسلم طبيعة كل واحدة منها ومسئوليتة إزاءها ، وهى مسئولية ضمن مسئوليته العامة عن التكاليف الشرعية ، وحسبنا أن نشير إلى علاقة واحدة من هذه العلاقات لنرى كيف جعل الإسلام السلوك الإنسانى أمراً مرتبطاً بأصول الاعتقاد ، قال تعالى فى كيفية التعامل مع الوالدين : **﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلاتقل لهما أفٍّ ولاتنهرهما وقل لهما قولا كريما * واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا﴾**. [1] وفى علاقات المؤمن مع المؤمن

---

(١) الإسراء ٢٣ : ٢٤ .

يقرر أنها ينبغي أن تقوم على أساس الإخاء الإيمانى ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾[1] وفى علاقات المسلم مع غير المسلم تقوم على أساس البر والقسط ، إذا كان غير مقاتل ولا مخرجاً للمسلم من دياره ، أو مظاهراً على إخراجه ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين * إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون** ﴾[2].

وأما العوالم الأخرى فقد حدد الإسلام دستور التعامل معها فى السلم والحرب على السواء ، وغايته من ذلك كله أن تظل الحياة عامرة بالأحياء ، وحسبنا فى ذلك توجيهاته إلى حُسن التعامل مع كل ذى كبد رطبة ، وأن فى ذلك صدقة ،

---

(١) الحجرات : ١٠ .　　(٢) الممتحنة : ٨ ، ٩.

هذا فضلاً عن القيم التى غرسها فى نفس ووجدان المسلم تجاه الحياة والأحياء جميعاً ، ثم فوق ذلك ماوجهه من أدلة خاطب بها الحس والعقل والشعور والوجدان إلى خالق الحياة نفسها « **الله رب العالمين** » وما ينبغى أن يكون له من الإذعان والطاعة والانقياد فى حدود الطاقة الإنسانية **﴿ تبـــارك الذى بيـــده الملك وهو علـى كل شىء قـديـر * الذى خلق الموت والحيـاة ليـبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور * الذى خلق سبع سـمـوات طبـاقـا مـاترى فى خلق الرحـمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ﴾**[1].

وأما عن العلاقة داخل المجتمع الإسلامى بين الحاكم والمحكوم فقد أقامها على أساس : الطاعة من قبل المحكوم تجاه الحاكم ، مالم يأمر بمنكر أو ينه عن معروف ، والعدل من قبل الحاكم تجاه المحكومين .

---

(١) الملك : ١-٣.

فى ظل ما تقدم أليس من حقنا أن نقول : إن طبيعة الإسلام ذاتها تحمل كل مقومات الحضارة بالمعنى الصحيح ، وإن الإنسان فى ظلها يحيا حياة تتعادل فيها كل مطالبه ، وينأى بنفسه عن الصراع الدامى الذى يعانى منه من يولى وجهه شطر مظاهرها المادية ، ويغفل أشواقه الروحية أو يؤثر حياة الزهد البائسة التى لا تقيم للحياة الصحيحة معنى ؟ بلى ! !

إن نظرة سريعة إلى طبيعة الحضارة اليوم ، التى يحياها العالم المتقدم والمقارنة بينها وبين طبيعة الحضارة الإسلامية على الوجه الذى ذكرنا تؤكد هذه النتيجة التى توصلنا إليها ، لقد لمس هذا الفارق العميق بين طبيعة الحضارتين ، مسلم أوروبى معاصر ، هو الدكتور محمد أسد فقال معبراً عن شعوره بهذا الفارق : " إن الأوروبى العادى سواء عليه أكان ديمقراطياً أم فاشياً ، رأسمالياً أم بلشفياً ، صانعاً أم مفكراً ، يعرف ديناً إيجابياً واحداً هو

التعبد للرقى المادى ، أى الاعتقاد بأن ليس فى الحياة هدف آخر سوى جعل هذه الحياة نفسها أيسر فأيسر ، أو كما يقول التعبير الدارج " طليقة من ظلم الطبيعة " إن هياكل هذه الديانة ، إنما هى المصانع العظيمة ودور السينما والمختبرات الكيمائية ودور الرقص وأماكن توليد الكهرباء ، وأما كهنة الديانة فهم الصيارفة والمهندسون وكواكب السينما وقادة الصناعات وأبطال الطيران ، وإن النتيجة التى لا مفر منها فى هذه الحال، هى الكدح لبلوغ القوة والمسرة ، وذلك بخلق جماعات متخاصمة ، مدججة بالسلاح ومصممة على أن يفنى بعضها بعضاً ، حينما تتصادم مصالحها المتقابلة ، أما على الجانب الثقافى فنتيجة ذلك خلق نوع بشرى تنحصر فلسفته الأخلاقية فى مسائل الفائدة العلمية ، ويكون أسمى فارق لديه بين الخير والشر ، إنما هو التقدم المادى " . إن إنسان الحضارة الغربية المعاصرة لم يدرك من الحياة إلا جانبها المادى فقط ،

وهو جانب يحمل فى داخله كل أسباب نقض تلك الحضارة، لأنها لم تسر بخطى ثابتة نحو إشباع الإنسان بدرجات متعادلة فى مطالبه،تلك التعادلية التى لن نجدها إلا فى ظلحضارة تراعى الإنسانككيان عام،إنها حضارة الإسلام.

## صورةحاصلة :

عندما يؤسس الإسلام للحياة الإنسانية بمبادىء قويمة تحدد علاقات الإنسان بطريقة صحيحة على الوجه الذى بينا وعندما يترك للعقل الإنسانى دوره فى ترقى الحياة ونهضتها على هدى من تلك الأسس وعندما تشده إلى ذلك حياة آخرة حافلة بكل أنواع الجزاء فى جانبيه : الإيجابى والسلبى على الصورة التى تحدث عنها الوحى المعصوم ، فماذا عسى أن يبقى بعد ذلك من حوافز تجعل الحياة الإنسانية فى أرقى صورها وأحسن أحوالها ؟ . إن النهج الذى رسمه الإسلام لذلك لم يكن مثالياً بعيد التحقق والوقوع على شكل " اليوتوبيا" التى قرأناها لفلاسفة

النظم السياسية قديماً ووسيطاً وحديثاً ، بل إنه دين جاء لكى يتعامل مع واقع الإنسان وقدراته وطاقاته ، بشرط أن تبلغ فى أدائها كل طاقاتها الممكنة ، وقد تحقق بفضل هذا التوجيه وجود حضارة جديدة من نوع آخر ، حين بزغ فجر الإسلام ، لم تكن فى طبيعتها وأدائها كما كان الحال فى الحضارتين اللتين أدركهما الإسلام : الرومانية فى الشمال والغرب والفارسية فى الجنوب والشرق ، إذ قامت هاتان الحضارتان على أساس «ثيوقراطى» يحكم «الامبراطور» شعبه باسم «الحق الإلهى» ولا يجد الأفراد مفرا من الإذعان لتلك السلطة ، وفى ظلها تغيب الحرية والمساواة والعدالة الى غير ذلك من أنواع القيم التى لا يحيا الإنسان حياة صحيحة إلا فى وجودها ، أما الإسلام فقد جاء ليرسى تلك القيم النيرة التى فى ظلها يسعد الإنسان ، ولعل على رأس تلك القيم طبيعة القيادة ، سواء أكان ذلك فى شخص النبى ﷺ أم لدى الخلفاء من بعده ، إن

النبوة أو الخلافة ليست أكثر من تبليغ منهج الله سبحانه وتعالى إلى البشر مع الفارق بينهما طبعاً ، قال تعالى لرسوله ﴿ **إن عليك إلا البلاغ** ﴾ ﴿ **وأن احكم بينهم بما أنزل الله** ﴾ ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم** ﴾ ، ويقول أبو بكر رضى الله عنه - وهو تعبير عن الوضع الحقيقى لنظام الحكم فى الإسلام بعد النبوة « إنى وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أصبت فأعينونى وإن أخطأت فقوِّمونى » فإذا أضفنا إلى ماتقدم أن الإسلام بحكم عالميته دين مفتوح لكل التجارب الإنسانية يأخذ منها ويعطى بالقدر الذى تسمح به طبيعته كدين إلهى جاء ليختم الله به آخر اتصال السماء بالأرض ، فماذا عسانا نجد - حينئذ - من نتائج لهذه الأسس والتوجيهات؟

إنها الحضارة المتميزة فى منطلقاتها وأهدافها ، وقد تحقق بها المسلمون منذ فجر تاريخ الإسلام ، وحسب

القارىء أن يعيد النظر فى قراءة إحدى سور القرآن المدنية الطوال ، وهى سورة النساء ليعرف فى ضوئها درجة التحضر التى يمكن أن يكون عليها المجتمع بفضل مافيها من قوانين ونظم وتوجيهات تمس جوانب الحياة الإنسانية كلها تقريبا فى السلم والحرب فى الشدة والرخاء فى السراء والضراء .

وإذا كانت الحضارة الإسلامية قد بدأت بسيطة غير مركبة ولامعقدة ، فهذا شأن كل حضارة ناشئة ، غير أن الذى ينبغى أن يؤكد عليه هنا ، هو أنها ظلت فى كل مراحلها ، مرتبطة بالاسلام كعقيدة ودين ، حتى بعد أن دخلتها عناصر الحضارات الأخرى ، ولكى نتحقق من صدق ذلك ، علينا أن نبحث عن الدوافع والأسباب التى كانت وراء نبوغ كثير من رموز الحضارة الإسلامية فى جميع المجالات فالكندى - مثلا - قد نبغ فى الرياضة ، حتى عد من بين اثنى عشر رياضياً عالمياً فى عصره ، كما يرى « كارادان » ويربط نبوغه هذا بعقيدته ، فيقيم الأدلة

الرياضية على تناهى العالم ، ليثبت حدوثه كما هو ظاهر فى القرآن الكريم الذى يقرر قضية الخلق المسبوق بالعدم فى مواجهة الاتجاه الذى يؤثر الحل لهذه القضية بتطبيق التلازم الضرورى بين « الله » « كعلة » و « العالم » كمعلول ، ذلك الذى أراد أن يواجه الشرع بمفهوم جديد لطبيعة العلاقة بين الله والعالم ، متأثراً إلى حد كبير بالاتجاه المشائى والأفلاطونى المحدث .

إن الذى حمل المسلمين على البحث الدؤوب فى العلوم الكونية - بجانب العلوم الشرعية ، تلك العلوم التى تشكل مفتاح الحضارة فى جانبها المادى - هو حبهم الشديد ، لأن يقرأوا أسرار الخالق منشورة فى كتاب الخلق ، بل لقد ذهبوا فى البحث الى أبعد مما كانت تتطلبه حياتهم العملية ، كما يقول « دبيور » . لقد جمعوا الحكمة من كل صوب بذكاء نادر وأضافوا إليها من عند أنفسهم الشىء الكثير ، كما يعترف بذلك من درسوا الجانب العلمى من

تراث المسلمين ، لقد تمثلوا الحكمة المنسوبة إلى على بن أبى طالب والتى قال فيها « الحكمة ضالة المؤمن فخذ ضالتك ولو من أهل الشرك » .

إن تفاعل العقلية الإسلامية بمعطيات « الوحى » كأساس أول اصطبغت به ثقافة المسلمين وشكل لديهم الوجدان الحى المستنير ، والمتفتح لكل ما هو طيب وحسن مع معطيات تراث الأوائل فى الجانب الإنسانى المشترك بين الثقافات والحضارات المتنوعة ، قد مكن المسلمين من صياغة حضارة إنسانية رفيعة احتفظت بخصائصها وذاتيتها ، وفى نفس الوقت تفاعلت مع الحضارات السابقة وكان هذا كله جديراً بأن تتبوأ مكانتها الإنسانية الخصبة في فترة تعد أخصب مرحلة من مراحل التاريخ الحضارى الإسلامى ، كما شهد بذلك المنصفون من مفكرى الغرب ، وكما هو طابعها الحقيقى الواقعى .

إن الناظر لتاريخ الإسلام فى جانبه الحضارى يلحظ أن

المكونات الأساسية لنظام حضارى متميز ، التى أرسى الإسلام دعائمها والتى أشرنا إليها فيما تقدم قد أثمرت واقعاً حضارياً تفاوتت أشكاله لأسباب أغلبها داخلى وأقلها خارجى لا مجال لسردها ، وإذا كان هناك شبه إجماع على أن القرن الرابع الهجرى يعد أزهى عصور الحضارة الإسلامية ، فإن هذا يحملنا على إبراز معالمه كنموذج للحضارة الإسلامية فى الواقع والتطبيق ، ولا يعنى هذا أننا نقول بأفولها بعد ذلك فقد ظلت حية قادرة على الثبات والصمود ، حتى فيما سمى بعصور التخلف والانحطاط فى ذاتها ، وفى ضمير المخلصين من المسلمين ، والمهم فى ذلك كله : أنها تملك من الخصائص والمقومات ما يجعلها جديرة بالوجود فى أى وقت متى تهيأت لذلك نفوس وقلوب أصحابها .

## القرن الرابع الهجرى

كان من الطبيعى أن يكون القرن الرابع الهجرى أبرز عصور الحضارة الإسلامية ، بل يمكن أن يقال فى اطمئنان وثقة بالغين: أبرز عصور الحضارة الإنسانية على الإطلاق، لقد تمثلت العقلية الإسلامية فى هذا القرن كل عوامل النجاح لظهور حضارة جديدة ، استوعبت تراثها من حيث أصوله وقواعده ، وأضافت إليه ماراقها من تراث الأولين ، وتكون من هذا المزيج ثروة فكرية وعلمية هائلة سارت بها الحياة الإسلامية فى كل مناحيها فى هذا القرن ، لقد دونت العلوم والفنون والآداب فى صورتها الكاملة ، بعد أن مرت بمرحلة النشأة ثم الإصلاح والتعديل ، ومن الضرورى أن يفرز تقدم العلوم تقدما آخر فى الروح والوجدان والمشاعر ، وهذا هو الذى حدث يوازيه أيضا تقدم فى الحياة العامة فى شكلها المادى ، وهنا تتكامل كل مطالب الإنسان بحيث لا يطغى فيها جانب على حساب الجوانب الأخرى .

حسبنا أن نلقى نظرة سريعة على كتاب لمؤلف غربى ، عَنى نفسه كثيراً بدراسة الحضارة الإسلامية فى هذا القرن ـ الرابع الهجرى ـ معتمداً على الأصول التراثية التى أرّخت لهذا القرن ، ومستخلصاً منها ما توصل إليه من نتائج ، كانت فى أكثر الأحيان تتسم بالحياد والموضوعية ، أما المؤلف فهو المستشرق السويسرى « آدم متز » وأما كتابه فهو « عصر النهضة فى الإسلام » أو «الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى»إن الدارس لهذا الكتاب يحس إحساساً قوياً بأن الحضارة الاسلامية قد أثمرت وآتت أكلها فى كل نواحى الحياة الإنسانية فى العلوم والآداب والفنون والنظم والعلاقات السياسية والاقتصاد والعمارة . . إلخ ومن قبل ومن بعد فى منهج البحث النظرى والتجريبى ، فأما من جانبه النظرى فقد تجلى فى انبثاق منهج جديد للبحث فى العلوم الإسلامية وبخاصة لدى المحدثين وعلماء أصول الفقه وأصول الدين ،

وقد كان هذا المنهج معبراً عن روح الحضارة الإسلامية أصدق تعبير ، لقد وضع المحدثون أسساً قويمة للحكم على الحديث من حيث الصحة وعدمها ، جاء غاية فى الدقة لايتطاول إليه منهج البحث التاريخى الذى ظهر حديثاً ، كما وضع علماء أصول الفقه منهجاً للبحث فى كيفية استخراج واستنباط الأحكام من أدلتها عدّه كثير من الباحثين فى الوسيط والحديث من أحسن ماكشفت عنه الحضارة الإسلامية ، ويعد كتاب الإمام الشافعى رضى الله عنه « الرسالة » من أول الأعمال العلمية فى هذا السبيل ثم طور هذا العلم بفضل اتساع العلوم والتقاء الثقافات وتجدد الوقائع حتى رأينا لعلماء الأصول مباحث فى مسالك العلة الجامعة بين الأصل والفرع ، قربتهم إلى حد كبير من المنهج التجريبى الحديث ، وأما فى مجال أصول الدين فقد وضع المتكلمون منهجاً يقوم على مقدمات ومسلمات انبثقت من تصوراتهم ، هى فى ذاتها بعيدة كل البعد عن طبيعة المنطق الأرسطى ، الذى تأثر

به بعض المفكرين .

وإذا التفتنا إلى المجال التجريبى نلاحظ أن المسلمين قد أبلوا بلاءً حسناً فى هذا المجال ، وما النتائج التى توصل إليها « الرازى » فى مجال الطب و«ابن حيان » فى الكيمياء و « ابن الهيثم » فى الفيزياء وغيرهم إلا ثمرة من ثمار ذلك المنهج التجريبى ، وقد استرعى هذا المنهج أنظار الباحثين المنصفين فى الغرب ، نذكر منهم « فون كريمر » الذى قال : « إن أعظم نشاط فكرى قام به العرب يبدو لنا جلياً فى المعرفة التجريبية ، ضمن دائرة ملاحظاتهم واختباراتهم ، فإنهم كانوا يبدون نشاطاً واجتهاداً عجيبين حين يلاحظون ويمحصون ، وحين يجمعون ويرتبون ماتعلموه من التجربة أو أخذوه عن طريق الرواية . . . . وبصفتهم أصحاب ملاحظات دقيقة وبصفتهم مفكرين مبدعين ، فإنهم أتوا بأعمال رائعة فى حقل الرياضيات والفلك » ولنفس السبب نجحوا فى التشريع وفى وضع قواعد اللغة من نحو وصرف فى شكل

عام محكم .

ولا بد من الإشارة هنا إلى موضوع جدير بأن يثار هو أن بعض الاتجاهات فى دراسة الحضارة الإسلامية ينظر إليها من خلال مايمكن أن نسميه بالجانب الترفى ، أقصد بذلك : مارصدته بعض الموسوعات التاريخية من ممارسات وسلوكيات بعض المسلمين فى حياة اللهو والطرب والموسيقى .. إلخ على غرار ماأودعه «الأصفهانى » فى كتابه المعروف « الأغانى » وظن هؤلاء الدارسون أن هذا الجانب هو الممثل ـ بحق ـ للحضارة الإسلامية ، ومما لا شك فيه أن هذا حكم قائم على التعميم ، ولا يمثل الحكم الصحيح على الإطلاق ، فلم تكن حضارة الإسلام يوماً غناء وطرباً وسهراً وندامى وسماراً. .إلخ. بل كانت حضارة بناء وإعمار ، بناء للنفوس والقلوب والعقول والأجسام بالإخلاص والإيمان والعلم والرياضة وإعمار للحياة بكل أنواع الخير ، وإذا كان هذا الاتجاه قد سلط الأضواء على هذا الجانب ، حتى يتوصل بذلك الى مايريد ، الأمر الذى

ظهر منه أن بعض الحكام ـ أمثال هارون الرشيد ـ كانت حياتهم مترعة بكل أنواع الملذات وأن هذا كان مظهراً للحضارة بمعناها الصحيح لديهم ، فقد فات هؤلاء أن يظهروا الوجه الآخر بل الوجوه الأخرى للحياة الإسلامية بمعناها الشامل وفى كل عصورها ، إنهم لوفعلوا ذلك لانتهى بهم البحث إلى غير مايقصدون وإذا ثبت التواء منهجهم هذا ، وإذا تيقنا أن هذه الرؤى ليست إلا وليدة عجز فى النفوس والعقول وانهزام داخلى فى المشاعر والأحاسيس وإيثار محاكاة وتقليد الغير ، حتى ولو سلك بهم جحر ضب خرب . أقول: إذا ثبت هذا ، فإن مقولاتهم التى نراها تحصر الحضارة الإسلامية ـ إن اعترفوا بها ـ فى العقود الثلاثة الأولى لفجر الإسلام ـ تصبح لا قيمة لها فى معيار البحث العلمى ، ولا تثبت أمام النقد والتمحيص ، لأنها دعاوى مجردة عن أدلتها .

وهناك اتجاه آخر لا يقل خطورة فى الحقيقة والبحث العلمى عن الاتجاه المشار إليه آنفا وأعنى به : اتجاه أولئك

الذين يكتبون عن الحضارة الإسلامية من خلال صورها الحاصلة بعد أن تكون قد تكونت لديهم أفكار ورؤى اقتنعوا بها جيداً ، وحاولوا إسقاطها على وقائع الحضارة الإسلامية ، يستوى فى ذلك من يسمون أنفسهم باليساريين الإسلاميين ، أو من ينعتون ذواتهم بأهل اليمين ، وربما كانت خطورة اليساريين أشد وأنكى ، لأن الحضارة الإسلامية فى تصوراتهم ليست إلا مجالاً خصبا لإسقاطاتهم السقيمة وحسب الدارس أن يلقى نظرة على ماكتبه أمثال : طه حسين فى كتابه : الفتنة الكبرى ، عثمان ، على وبنوة ، وعبد الرحمن الشرقاوى فى كتابه « محمد رسول الحرية » وأحمد عباس صالح فى مقالاته « الصراع بين اليمين واليسار فى الإسلام » ليدرك كيف تفسر وقائع التاريخ والحضارة الإسلامية ، وكيف يراد لها أن تتكون وتصطبغ بصبغة هؤلاء الكتَّاب ، أما الحقيقة والواقع وسياق الأحداث والظروف والملابسات التاريخية فكل هذا فى نظر هؤلاء لا اعتبار له ، لأنه لا يخدم منهجهم

فى شىء .

إن الصور الحاصلة للحضارة الإسلامية لن تدرك على حقيقتها إلا بمنهج علمى صحيح ، ونفس تبغى الحقيقة لذاتها لا لشىء وراءها ، ومتى توفر هذا وذاك فستكون النتائج حاسمة ، تبرز عطاء هذه الحضارة فى مراحل ازدهارها عندما تهيأت الأسباب لذلك ، وفى مراحل تخلفها عندما ظهرت العلل التى عرقلت سيرها ، وهى وإن كانت فى هذه المراحل قد عوقت إلا أنها فى ذاتها كانت موجودة بوجود مصدرها والفاعل الأساسى فى انبثاقها وهو الإسلام ، دين الله الخالد وبذلك ندرك أن تخلفها ليس الا عرضاً طارئاً متى زالت أسبابه ، نهضت من جديد لتشكل دورها الحقيقى ، كما شكلته فى أدوار ظهورها وانتشارها .

## عقبات فى الواقع والتطبيق

إذا كان الإسلام بطبيعته ديناً حضارياً كما رأينا ، فما العوامل التى شكلت عقبات فى سبيل تحقق حضارته فى بعض حقب تاريخه حتى بدأ فى بعض مظاهره وكأنه قد

تنازل عن دوره الذى مثله فى أيام ازدهاره ؟ الواقع الذى أطمئن اليه جيداً - وأنا أدلى بدلوى فى هذه المسألة - أن الإسلام كدين ليس مسئولاً على الإطلاق عن كل الظواهر السلبية التى اعترضت تاريخه ونشاطه ، وإنما المسئول عن ذلك أولاً وأخيراً هم المسلمون أنفسهم .

إنه من الثابت تاريخياً أن التقدم الإنسانى لأمة ما ، يخضع لما يسمى بالدورات الحضارية ، وأن العامل الأساسى فى قيام حضارة واندثار أخرى ، إنما تفسره أسباب داخلية أولا ، سواء أكان ذلك فى جانب نشأة الحضارة ونموها واكتمالها ، أم فى جانب أفولها وزوالها ، والحضارة الإسلامية ليست بدعاً من بين الحضارات فى هذه المسألة ، بل ربما يكون الأمر فيها أوضح من غيرها والقرآن الكريم قد أشار الى هذه القضية حين استحضر قصص الأولين ، وربط بين الأسباب والمقدمات وبين النتائج والآثار فى حالتى الإيجاب والسلب ، وهو إذ يبرز هذه الحقيقة يركز على العامل النفسى والروحى كعامل

حاسم وأساسى فى هذا المقام ، بل ربما يكون هو السبب الرئيسى الذى ترتبط به الحضارة وجوداً وعدماً .

لقد شيدت الأمم السابقة حضارات ، فعمرت الأرض وشقت الأنهار ، حتى ازدهرت الزراعة ، ونحتت من الجبال بيوتاً عالية سامقة واتخذت المصانع المتقدمة بمقياس عصرها ، وحفلت تلك الحضارات بكل ألوان النعيم المادى ، غير أنها لم تمكث طويلاً ، بل زالت وبادت ، وكان الانحراف النفسى والروحى كفيلين بذلك وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ **وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم * قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون** ﴾ [1] إن عجز

---

(١) يونس: ٨٨-٨٩ .

الآية الأخيرة صريح فى أن المباهج المادية بكل صورها وأشكالها مهما بلغت درجة رقيها وتقدمها ، لا تغنى شيئا في غيبة العلم الحقيقى بالكون وخالقه ومدبر أمره ، وانعطاف النفس نحو الجانب المادى فقط يشكل بداية الانحراف الذى يسرع بزوال الجانب المادى للحضارة إن كانت قائمة ، كما أن السعى لإدراكها ـ فى حالة غيابها ـ إن ظل مركزا على هذا الجانب فحسب ، فإن ذلك سيؤذن بتأخر قيامها ، حتى يعالج ذلك الخلل الذى يعترى الجانبين النفسى والروحى للأمة .

إن هذه الصور قد تكررت فى القرآن الكريم ، ولم يكن تكرارها هـذا إلا لأمـر ذى بـال ، يتأكد من خلاله أن قيام حضـارة أو سقوطها ، إنما يخضع لسنة إلهية لا تتبدل ولا تتحول ، فقيامها فى الواقع المشاهد إنما يكون نتيجة طبيعية لقيـامها فى نفـوس أصحـابها وقلوبهم ، كما أن سقوطها فى الواقع كذلك ، يكون مسبوقا بزوالها واندحارها من الواقع النفسى والروحى للأمة ، نلحظ هذا

بوضوح فى مشهد كريم عقب فيه القرآن الكريم بعد أن استحضر فى المشاعر والأحاسيس كل الحضارات المادية السابقة ، ببيان هذه الحقيقة فقال سبحـــانه : ﴿ **ذلك بمـا قـدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعـبــيــد * كدأب آل فـرعون والذين من قـبلهم كفـروا بآيات الله فــأخــذهم الله بذنوبهم إن الله قــوى شــديد العقاب * ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قــوم حــتى يغـيــروا مــا بأنفــســهم وأن الله سميع عليم** ﴾ (١)

إن هذا المبدأ القرآنى يمكن أن يستوعب التاريخ كله ماضيه وحاضره ومستقبله ، وقد استلفت أنظار كثير من الباحثين الغربيين ، باعتبار أنه تقويم دقيق لحقائق التاريخ ، ورصد مركز لحركته صعوداً وهبوطاً ، لقد درس المفكر الألمانى « هرمان دى كيسرلنج » فى كتابه « البحث

---

(١) الأنفال : ٥١ ـ ٥٣ .

التحليلى لأوروبا » أسباب تأخر قيام الحضارة المسيحية ، فعلل ذلك بأن الروح الأوروبية لم تكن خالصة مهيأة لذلك فى أول ظهور المسيحية حيث نشأت وسط خليط من الديانات والثقافات العبرية والرومانية واليونانية ، فلم يتح لها أن تدخل إلى قلوب الناس وسط الزحام الفكرى والثقافى ، لتؤثر فيها تأثيراً فعالاً ، ولم يكتب لها أن تعمل عملها إلا عندما بلغت وسط البداوة الجرمانية فى شمال أوروبا ، حيث وجدت النفوس الشاغرة فتمكنت منها ، وبعثت فيها الروح الفعالة ، التى اندفعت بها لتكون حلقة فى سلسلة التاريخ ، ومع الجرمانيين ظهرت روح خلقية سامية فى العالم المسيحى » [1].

وقد انتهى « هنرى بيرين » إلى نفس النتيجة فى الكتاب الذى ألفه عن « محمد وشارلمان » لقد كانت دراسة مقارنة بين الحضارتين المسيحية والإسلامية ، إنه يرى فى

---

(١) أنظر : مالك بن نبى : شروط النهضة صـ٥٥ مرجع سابق .

« شارلمان » الشخصية الفذة التى بعثت الروح المسيحية فى نفوس الغربيين ، فظهرت بفضلها الحضارة المسيحية لتمثل دورها التاريخى كما فعل محمد ﷺ من قبل ، حيث بعث الروح الإسلامية التى أبدعت الحضارة الإسلامية »[1]. ولا يقصد الباحث التماثل التام بين الحضارتين بقدر مايعنيه أن يبرز الروح الدافعة بين كل من الدينين الى الإبداع والحضارة .

إن الفكرة الدينية لها أثرها القادر على خلق الحضارة وبقائها ، وهى مسألة استقر عليها كثير من الباحثين فى الحضارات من المفكرين المحدثين والمعاصرين ، وقد تجاوزوا بها تلك التفسيرات الهشة التى أفرزتها المذاهب المادية التى حاولت « الماركسية » تنظيرها بصورة فلسفية ، فأخفقت وكان إخفاقها فى الواقع - كما نشاهد اليوم - دليلاً واضحاً على عدم سلامتها

---

(١) نفس المرجع صـ٥٦ .

من الناحية النظرية .

إن العقبات التي تشكلت أمام الحضارة الإسلامية فى بعض مراحل تاريخها ترجع إلى نفوس ممثليها قبل أن تكون راجعة إلى أسباب خارجية - كما أشرنا - ومن الثابت أن قوة العوامل المضادة ، قد لا تكون راجعة إلى شىء ذاتى لتلك القوى بقدر ما تكون راجعة إلى ضعف فيما تضاده ، ومن ثم نرى أن مراحل التخلف والانكماش لتلك الحضارة وظهور حضارة أخرى عليها ، إنما كان تحقيقاً لسنة إلهية لا تتخلف ، ومن المعلوم أنه فى غيبة أسباب النهوض وتخلفها ، تظهر أسباب الضمور والركود ، وكلا النوعين من الأسباب له تأثيره القوى الفعال كل فى دائرته .

ولا يحسبن إنسان أن صحة العقيدة فى ذاتها ، يمكن أن تصنع حضارة أو تحتفظ بها إذا كانت موجودة ، ما لم يتهيأ لتلك العقيدة من العزائم والإرادات ما يجعلها قادرة على تأثيرها فى الواقع ، ومن المعلوم أن مبدأ « السببية » من

أظهر المبادىء التى يحترمها الإسلام ويقدرها ، وأحسب أن الأفول الذى اعترى الحضارة الإسلامية فى بعض حقب التاريخ كان مرجعه إلى إغفال هذا المبدأ ، وهذا يعنى فى ذاته :ضعف العلاقة آنذاك بين الإسلام ونفوس المسلمين ولم يكن الإسلام مسئولاً فى يوم من الأيام عن ذلك كله ، ولقد صدق إلى حد كبير ذلك التقرير الهام الذى أشار إليه العلامة أبو الحسن الندوى ، والذى يقضى بأنه : كلما ظهرت فى سماء الإسلام نزعات جاهلية ، تشد المسلمين إلى الوراء كان ذلك إيذاناً بأفول نجم الحضارة الإسلامية طرداً وعكساً .[1] وما كانت حركات الإصلاح التى قامت فى تاريخ الإسلام ، إلا تأكيداً لرفض كل صور الجاهلية وإحياء معالم الإسلام الحقيقى بصورته المتكاملة الشاملة التى تعطى لمبدأ السببية دوره الحقيقى فى التأثير فى الحياة العملية وصياغة

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين صـ١٥٤ ، مرجع سابق .

الحياة الاجتماعية كلها على أساس هذا المبدأ ، واستحضار جـــميع العـلاقات الصحيحة - التـــى أومــأنا إليها من قبل ، غير أن بعض تلك الحركات ، كان ينقصها الرؤية الشـمولية ، فانحـصرت فى دوائـر ضـيقـة من النهوض لم تؤت أكلها على المستوى العام . [1]

وفى تقديرى أن من أصعب العقبات التى تفرعت عن العقبة الأم « التغير النفسى » النظرة المتجزئة إلى الإسلام ، وقد ظهرت بشكل مخفف لدى بعض الفرق والمذاهب التـى تعصبت لما كونته لنفسها مـن عقائد وآراء ، إما من خلال ثقافتها الذاتية ، كما كان الحال لدى المعتزلة وجمهور الفلاسفة الإسلاميين وإما من خلال تصوراتها حول النص الدينى بطريقة غير صحيحة ، كما كان الحال أيضا لدى الحشويين وأصحاب الظاهر غير المستنير ، وفى المذاهب الفقهية رأينا - أيضا - اجتهادات

---

(١) مالك بن نبى : شروط النهضة صـ٤٧ مرجع سابق .

مذهبية ، تتسم بشىء من التعصب للمذهب وكان هذا كله كفيلاً بأن يحدث تأثيره السلبى على الحضارة الإسلامية فى مجال العلوم الدينية الشرعية ، وكان له صداه الواسع على جوانب الثقافة الأخرى ، بل يمكن أن يقال : على جميع الحياة الاجتماعية الإسلامية .

لقد أحدثت الخلافات الداخلية للفرق والمذاهب تأثيراً ظاهرا على الحياة العملية ، وشكلت الجدليات فى المسائل التى ليس تحتها عمل حُجباً كثيفة عكرت سماء الإسلام ، ولم يدرك المسلمون المغزى الحقيقى للتوجيه الكريم لهدى الرسول العظيم حين قال : « ماضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل » [1] . ولم تكن حقيقة هذا النوع من

---

(١) روى ابن سعد فى الطبقات جـ ٤ صـ ١٤١ أن النبى ﷺ خرج على قوم وهم يتجادلون فى القدر ـ فقال : أى قوم أبهذا أمرتكم أم بهذا جئت إليكم ما عرفتم فاعملوا ومالم تعرفوا فآمنوا ، إنما هلك من كان قبل قبلكم اختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتاب بعضه ببعض » .

الحوار والتناظر ، سعيا وراء امتلاك الحقيقة والعمل بها ، بقدر ما كانت جرياً وراء الغلبة والنصرة وإثبات الذات ، ومما لا شك فيه أن اختلاف الألسنة فرع عن اختلاف القلوب والأفئدة ، ومتى تم ذلك فماذا ينتظر أن يكون ؟ إن فقدان الوعى بحقائق الإسلام وتوجيهاته ينشأ عنه ما ذكرنا ، وهو - كما نرى ، ليس راجعاً إلى الإسلام فى ذاته - كما أشرنا - فالإسلام يضع على الطريق السوى ، الضمانات الكفيلة للمضى فيه حتى النهاية ، وحسبنا فى هذا المقام تحذيرات القرآن الكريم والسنة المطهرة من التنازع والافتراق كما صوره قوله تعالى **﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾**[1] وقوله **﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾**[2] .

(١) الأنفال : ٤٦ .

(٢) آل عمران : ١٠٣ .

## نظرة مجردة إلى حاضرنا:

واقع العالم الإسلامى اليوم يفصح عن نفسه ، ولا يحتاج إلى اجتهادات لتبيان ما آل إليه ، ولا يمكن - عند النظرة المجردة - تلمس أسباب خارجية لهذه الظاهرة ، وإذا كانت كل دولة - تقريبا - قد توزعت بين ألوان الاستعمار المختلفة فى القرن الماضى فلم يكن ذلك بحاصل إلا لأنها كانت قابلة لذلك ، وهذه حقيقة عبر عنها الشيخ جمال الدين الأفغانى ، حينما سأله تلميذه الشيخ محمد عبده : مالى أرى « الإنجليز » تذأبوا - أى صاروا كالذئاب فى اقتناص فرائسها من دول العالم الإسلامى - فكان جواب الشيخ : لأنهم رأوا أمامهم نعاجاً فتذأبوا [1] . وقد أكد هذه الحقيقة المفكر المسلم المرحوم « مالك بن نبى » عندما قرر أن البحث عن ظاهرة الاستعمار ينبغى أن يسبق

---

(١) انظر : الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده : إعداد دكتور محمد عمارة . ط القاهرة ١٩٨١.

بالبحث عن قابلية الاستعمار [1] .

وقد انتهى الدارسون الباحثون عن مواطن الخلل التى أدت بالعالم الإسلامى إلى أن يعيش هذا الواقع الأليم إلى نفس النتيجة التى قررناها من قبل ، وهو الخلل النفسى الذى اعترى الحياة الإسلامية فى كل مظاهرها وأشكالها . إن الاستعمار والجهل والفقر والمرض ، وانعدام التنظيم وسوء الإدارة وفساد الاقتصاد واعوجاج مناهج التربية واضطراب ما يسمى بالرأى العام ، واختلال العلاقة بين الحكام والمحكومين ، كل هذه ليست أمراضاً حقيقية بل هى أعراض لمرض عضال فتاك ، هو الذى أشرنا إليه ، ومن ثم نلاحظ أن معالجة هذه الأمراض مهما كانت ناجعة لن تجدى شيئاً طالما أن أصل المرض موجود ، إن نتيجة معالجة هذه الأمور لن تكون أكثرَ من معالجة طبيب لمريض يصاب

---

(١) تسرى هذه الفكرة فى كل كتب الأستاذ / مالك بن نبى تقريباً ، وهى ظاهرة جداً فى كتابه « شروط النهضة » .

بالسل الجرثومى بتسكين الحمى عنده دون أن ينفذ إلى صميم المشكلة ، فيعالج الجراثيم المسببة لهذا المرض . [1]

إن جهود المصلحين فى الحياة الإسلامية الحديثة منذ حركة محمد بن عبد الوهاب ، وحتى ما يسمى بالصحوة الإسلامية المعاصرة ، قد تعاملت مع ظاهرة التخلف بالمنطق المشار إليه ، فالوهابية تتخذ من التوحيد الصحيح أساساً لمنهجها الإصلاحى ، وهو أمر مستحب ومرغوب ، على اعتبار أنه أساس الدين ، وهذا الأساس فى حد ذاته متصل بالقضية الأساسية « الناحية النفسية » على اعتبار أن التوحيد الصحيح مظهر للنفس المستقيمة فى تفكيرها وتصوراتها ، ونتيجة لهذه الاستقامة تسقط جميع الغيوم التى تحجب التوحيد النقى الصادق ، من تقدير غير الله من الأولياء والكبراء واتخاذ الوسائط التى يظن أنها تضر وتنفع ،

---

(١) مالك بن نبى : شروط النهضة ص ٤١ مرجع سابق .

وهى فى الواقع ليست كذلك ، إلى غير ذلك من كافة ألوان الخرافات التى تثمرها التصورات غير الصحيحة للتوحيد ، كزيارة القبور والطرق الصوفية البعيدة عن روح الدين والتى تبالغ فى الكرامات .. إلخ ، غير أن الجوانب الأخرى التى يمكن أن تواكب إصلاح العقيدة لم يكن لها تقدير فى منهج الوهابية الإصلاحى ، ويظهر أن التأكيد على إصلاح العقيدة عند هؤلاء كان مبنياً على أساس أن إصلاحها هو نقطة البدء التى تبنى عليها كل مجالات الإصلاح الأخرى ، وهذا حق ، غير أن هذه الحركة قد هيأت النفوس لمعاداة كل جديد من أنماط التقدم والمدنية ، حتى من الأمور التى أحلها الله ، لأنها وضعت لنفسها مقياساً اعتقدت صحته إلى نهاية الشوط هو : أن كل ما لم يكن على حياة الرسول ﷺ فهو أمر مستحدث مبتدع ، وكل بدعة ضلالة ، وهذه النظرة القائمة إلى منجزات الإنسانية فى المجال الحياتى التى لا تصطدم مع نهى شرعى ، جعل هذه الحركة معزولة عن

الحياة الإسلامية بالمعنى الواسع [1]

وما قيل عن الحركة الوهابية يمكن أن يقال كذلك عن حركة " مدحت باشا" الإصلاحية - التى ركزت على الجانب المالى والاقتصادى والعسكرى ، وباختصار: إذا كانت الوهابية تهدف إلى العودة بالأمة إلى أصولها الصحيحة فى جانب الاعتقاد ، فإن الهدف الذى أكد عليه "مدحت باشا" فى حركته ، هو ربط الأمة الإسلامية بالأمم المتحضرة ، واتخذ من بعض الدول الغربية نموذجاً ينبغى أن يحتذى ، ومما لا شك فيه أن حركة هذا هدفها ، تعنى بالجانب المدنى للأمة بالقدر الذى لا يساويه اهتمامها بالجانب الدينى ، لا بد أن تصدم بمشاكل جمة ، من ثم لم يقدر لها أن تؤتى ثمارها ، لأن منهجها كان مبتوراً كما رأينا [2] .

---

(١) انظر : د . / أحمد أمين ، زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ص ٢٠ ط دار الفكر العربى بيروت .

(٢) نفس المرجع : ص ٥٧ .

وكذا الحال في حركة الإصلاح السياسي التي قادها الشيخ جمال الدين الأفغاني والإصلاح التربوى والديني التي نادى بها الشيخ محمد عبده ، إنهما معاً يرتكزان على الإسلام ، غير أن الاهتمام الجاد بجانب من جوانب الإصلاح دون بقية الجوانب ، جعل حركة كل منهما أشبه ما تكون بالترقيع في ثوب مهلهل يمكن أن يعطى للثوب قدراً من البقاء ، ولكن إلى حين [1].

وقد ظهرت في عصرنا الحاضر ، حركة فهمت الإسلام بمعناه الحقيقي بل : فهمت ما ينبغي أن يكون عليه الإصلاح الذى يراد للأمة ،ومثل إن الناظر في أدبيات هذه الحركات وبخاصة الرسائل الجامعة التي تركتها يدرك بحق ، أنها حركات إصلاحية قامت في العصور

---

(١) نفس المرجع ص ٥٩ وما بعدها حتى ص ١٢٠. وفيها حديث شامل عن الشيخ جمال الدين الأفغاني ومنهجه الإصلاحي ومن ص ٢٨٠. إلى ص ٣٣٧ الحديث فيها عن الشيخ محمد عبده ومنهجه الإصلاحي .

الحديثة، لأنها لم تعن بجانب على حساب الجوانب الأخرى ، بل نظرت إلى الإسلام فى روحه العامة ، من منظور صحيح يعطى للعقل وللعلم وللمدنية قدرها فى صياغة الحياة الإسلامية ، بعد استلهام روح الدين الخالدة ، التى مكنت المسلمين من صياغة حياتهم على نمط صحيح ، يوم فهموا الإسلام فهما دقيقاً ، ولو شاء الله لهذه الحركة - فى شكل رموزها المعتدلين فى يوم الناس هذا - أن تتمكن من بلوغ أهدافها ، بنفس المنهج المتكامل الذى اختطته لنفسها ، فسيعود للحضارة الإسلامية دورها الذى افتقدته . وستزدهر من جديد أعلام الإسلام ، تسعد بها الدنيا ، كما سعدت بها من قبل يوم كانت حية فى قلوب أتباعها وفى واقع حياتهم .

ولقد أفرزت حركات الإصلاح هذه اتجاهات ثلاثة ، لا يزال لأفكارها صدى ملموساً فى واقعنا الثقافى والفكرى حتى يوم الناس هذا ، هى :

**١) الاتجاه التراثى :** الذى يحاول أن يرجع بالأمة إلى ينابيع وجودها الحقيقى بعيداً عن كل ما أفرزته الحضارة الغربية بكل معطياتها الحضارية ويمثل هذا الاتجاه السلفيون المعاصرون .

**٢) الاتجاه التحديثى:** الذى يدعو إلى الأخذ بأنماط الحضارة الغربية ، متجاوزا تراث الأمة إذا اصطدم بمعطيات الحضارة الحديثة ، ويمثل هذا الاتجاه مجموعة ممن يطلق عليهم " التنويريون المعاصرون " أمثال : لطفى السيد ، طه حسين ، سلامة موسى ، وغيرهم [(١)] .

**٣ ) الاتجاه الانتقائى :** الذى يرى ضرورة المحافظة على الأصول التراثية للأمة مع ضرورة الأخذ بمنجزات

---

(١) انظر : د / محمد البهى . الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص ١٥٥ ط تاسعة - القاهرة ١٩٨١ ، ففيه تحليل دقيق لأهداف ومنطلقات أصحاب هذا الاتجاه .

الحضارة الحديثة فى مجال العلوم والتكنولوجيا والأمور الحياتية التى تمثل قدراً مشتركاً بين كل الحضارات ، ويظهر أن هذا الاتجاه يرضى كثيراً ممن لا يميلون إلى أحد الاتجاهين السابقين ، غير أنه اتجاه ، له محاذيره كذلك لأن فكرة الانتقاء الحضارى فى التصور الإسلامى لا تكون صحيحة إلا فى مناخ يكون الإسلام فيه هو : " الأيديولوجية " العامة التى تتخذها الأمة إطاراً ومنطلقاً لها ، وإذا كان هذا المناخ غير مهيأ بعد ، فإن الانتقاء يصبح شكلاً ومظهراً ، لوحللنا مضمونه لعاد بنا إلى الاتجاه الثانى ، ومن المعلوم أن الأنماط الحضارية حتى فى شكلها المادى إنما تحمل معها مضموناً غير مرئى يعبر عن روح وأخلاقيات صانعى تلك الحضارة ، وكأن النتيجة الطبيعية بعد هذا كله هى محاولة التخفيف من حدة الاتجاه الأول إلى حين ، إلى أن تراجع الأمة موقفها من جديد ، حتى تستطيع التنظير لمشروع حضارى متكامل ،

ينطلق من الإسلام ، ويستوعب كل ما يمكن أن يساعد على استئناف دورة الأمة الحضارية ، وقد ظهر هذا الاتجاه فى بعض الكتابات والدراسات ، وأوصت به بعض المؤتمرات التى انعقدت لتعالج هذه المشكلة ولكن لا تزال النتائج رصيداً من المشاعر والأحاسيس دون أن ترى فى الواقع شيئاً حقيقياً .

## رؤيـــة المستقبل :

إذا كانت المباحث التى مرت تمثل التماس العلل والأسباب لواقعنا الحضارى المريض ، تشخص أدواءه ، فإن البحث هنا يمثل وصف الدواء المناسب لتلك الأدواء والعلل ، ويمكن أن يقال باختصار : إن الأمة الإسلامية تملك رصيداً ضخماً من الإمكانيات والقدرات ، جديرة بأن تعيد للحضارة الإسلامية مجدها التالد ، ولكن متى وجدت إلى النفوس والقلوب سبيلاً ، ولنتكلم بشىء من التفصيل عن هذه الإمكانيات .

## أولاً : العقيدة الصحيحة الموحدة الدافعة

إن العقيدة الإسلامية تملك فى ذاتها من المقومات الصحيحة ما يجعلها ملائمة للفطرة الإنسانية السليمة ، وهذه الملاءمة تجعل سلطانها على النفوس والقلوب أعمق وأدوم ، لأنها تنفى كل الخرافات والأباطيل التى شكلت عقبات فى سبيل الإيمان الصحيح ، فيما وجد لدى الديانات والأديان الأخرى ، وهى فى نفس الوقت تمثل الرابط الحقيقى لمشاعر وأفئدة المؤمنين بها ، وهذا الرابط هو الذى يدفعهم إلى العمل والحركة ، ومن المعلوم أنه كلما تمكنت الفكرة من نفوس وقلوب أتباعها ، كلما حملتهم على التضحية فى سبيلها والعمل على نجاحها ولعل هذا هو السر فى النجاح الذى حققته الدعوة الإسلامية فى أول نشأتها على الرغم من كثرة العقبات التى وضعت فى سبيلها .

لقد أحدثت تلك العقيدة عند المسلمين انقلاباً فى تصوراتهم والمفاهيم والعلاقات ونتج عنها كثير من الآثار أهمها : أن الناس لما علموا بالدليل الواضح أن الله واحد لا شريك له ، وأن ما عداه مخلوق ومحكوم ، ماتت لديهم عقلية تقديس مظاهر الطبيعة - التى كانت تعبد من دون الله - بل أصبحت الطبيعة خادمة نفسها للإنسان مسخرة له، فذهب يستكشف كنهها وحقيقتها ويستخدمها لحاجاته، وكان هذا إيذاناً ببدء حياة علمية صحيحة ، بهذا الانقلاب - أيضاً - انقرض عصر عبادة الملوك وبدأ عصر التفكير الجماعى ( الشورى ) ولم يبق لأحد بعد ذلك أن يحكم الناس باسم الحق الإلهى .

ولا نريد أن نستطرد بأكثر من هذا ، بعد أن بينا سلفاً طبيعة الإسلام كمنطلق حضارى ، ولكن نضيف شيئاً مهماً جداً هو : إذا كان الإسلام قد صنع حضارة شهد لها التاريخ بالسمو والتقدم ، كما أثبتت الدراسات الجادة

أثرها على عصر النهضة فى أوروبا ، بل والعصر الحديث كذلك ، فإن هذا الدين هو بذاته لم يتغير ولم يتبدل فى يوم الناس هذا ، بل ولن يتبدل أبداً من حيث طبيعته ، والنتيجة الطبيعية لهذا أنه لن يتخلف عن صياغة حضارة جديدة تحياها أمته بل يمكن أن يعيش فى ظلها كل أمم الأرض ، متى توفرت النوايا والمقاصد الحسنة لذلك ، وإذا كانت هذه القابلية أمراً ذاتياً فى الإسلام - وما بالذات لا يتخلف كما هى القاعدة الفكرية - فإن انفعالنا بهذه القابلية هو الحاسم فى قضيتنا هذه .

## ثانياً: القوة البشرية والطاقات الفكرية

تشكل القوة البشرية للعالم الإسلامى اليوم ربع سكان العالم تقريباً أى ما يقرب من المليار وربع المليار نسمة ، وهذه قوة لها أثرها الفعال متى كانت على وضع صحيح ، وإذا كانت لم تبلغ بعد هذا الوضع المرتجى لعوامل كثيرة ، فإن إمكانية تشكيلها من النواحى النفسية والعقلية

والوجدانية بما يتلاءم مع الإسلام ، أمر ممكن ، وهذا يقتضى صياغة رؤية منهجية تربوية ترتكز على حقائق الإسلام لتكون الزاد الذى تغذى به جماهير هذه الأمة ، وتفصيل ذلك ، تكفله الصفوة المسلمة ، البارزة فى مجال التوجيه والتربية ، وأحسب أن ذلك هو المدخل الطبيعى لإعادة بناء مناهجنا على أساس صحيح يتجاوز المعالجات المبتورة لقضايانا التربوية المنقطعة عن منطلقاتنا الأساسية ، تلك التى ترى كأنها أمشاج وأخلاط من رؤى تربوية وتوجيهية متباينة - إن أعوزها شىء من الدين - وحتى لا تظهر متنافرة معه أدخلته بشكل فج فى النظرة التربوية ، فيلاحظ كأنه ترقيع فى ثوب خَرِق ، وصدق فى هذه القضية ما قاله الشاعر العربى :

نرقع دنيانا بأحكام ديننا ** فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

إن الثنائية التي وجدت اليوم فى منهاجنا التربوية والتوجيهية بشكل عام إنما تحمل آثاراً واضحة من علمانية

الغرب الذى انفصل فيه الدين عن الدولة وإذا كان قد بان لنا أن الإسلام لا يقر تلك الثنائية على اعتبار أن كل العلوم فى منظوره وسائل للكشف عن سنن الله فى الوجود ، فإن بقاءها يعد جسماً غريباً فى نسيج الإسلام ، وقد أكد هذا المعنى أحد الباحثين الكبار فى علم العقيدة فى القرن الثامن الهجرى ، وأعنى به " عضد الدين الأويجى " حين قرر أن موضوع علم العقيدة هو : البحث فى الممكن من حيث يتوصل بدراسته إلى إثبات الواجب ، والممكن المشار إليه يعنى : كل الموجودات فى عالمنا هذا ، ويستوى فى ذلك ما يعرف بالعلوم الكونية ، وما يعرف بالعلوم الإنسانية .

وأما عن الطاقات الفكرية الموجودة فى عالمنا الإسلامى اليوم فهى حقيقة لا تنكر ، غير أن ولاءاتها قد فترت لعدة أسباب لعل على رأسها : النظم المتسلطة التى تريد تسيير دفة الحياة بطريقة غير علمية ، ضاربة صفحاً عن

خبرات أهل الاختصاص ، مولية وجهها نحو أهل الثقة لتستعين بهم حتى ولو كانوا جهلاء ، الأمر الذى جعل بعض أصحاب تلك العقول تبحث لها عن بيئة جديدة وبعضها الآخر آثر الصمت الحزين ، وقد أقام للعلم فى داخله محراباً ، يلوذ به كنوع من الخلاص النفسى كلما شعر بضيق الدنيا من حوله .

وإذا كان مناخ الحرية هو الكفيل بأن تعود العقول المهاجرة إلى بيئتها وأن تخرج العقول التى لم تهاجر عن صمتها وحزنها ، فإن تحقيق هذا المناخ هو مسئولية الأمة كلها ، يحدوها المثقفون والرواد من المفكرين من أصحاب العزائم القوية والرؤية الواضحة ، وأحسب أنه لا يمكن أن يكون ذلك إلا إذا توفرت لدينا فئة تؤمن برسالتها هذه ، وتعمل على تحقيقها ، بالوسائل السليمة والقرآن الكريم قد وضح لنا هذه الحقيقة فى قوله تعالى : **﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون**

**عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾** [1] . إن الآية تشير إلى ما يسمى بالصفوة لتكون طليعة الكفاح من أجل التغيير إلى الوضع الأفضل والأمثل ، لقد انفعل بهذه الآية الباحث المسلم وحيد الدين خان فقرر فى زفراته التى قدمها سقياً للبعث الإسلامى ، إن قضية البعث هذه تبحث عن رجل إنسان فى زحمة الأناسى ، وهى تبحث عن إنسان كمم فمه من خوف الله بين الناس الصائحين الناطقين باسم الله ، وتبحث بين الذين يجرون وراء الدنيا - عبيداً لها - عن إنسان أقعدته الآخرة ، وتبحث بين من يبتهجون، عن إنسان اضطر إلى البكاء من خشية الله ، وتبحث عن إنسان بين رافعى رايات الأنانية ، دخلت فى قلبه بشاشة الإيمان فوجد الله ، حتى لم تبق عنده إلا روح خالية من الأنانية ..وتبحث عن إنسان بين المتاجرين باسم الدين تخلى عن التجارب والصراع ،

---

(١) آل عمران : ١٠٤ .

وتبحث عن إنسان بين رافعى لافتة " حاسبوا غيركم " اتخذ شعاره « حاسبوا أنفسكم " هؤلاء هم الأناس الذين ينتظرهم الإسلام ، وهؤلاء هم الذين سيحققون للإسلام الهيمنة الفكرية ، وسيقودون قضية البعث الإسلامى ، وقد اجتمع فى ذواتهم المنهج والشروط .

## ثالثاً : القــوة المادية

فى بلاد الإسلام اليوم أكثر من ستين فى المائة من الطاقة الموجودة فى العالم وقد استفاضت الإحصائيات بذلك ، وما لم يكتشف من المواد الخام الأخرى التى تشكل عصب الحياة الحضارية ، قد يكون أكثر مما اكتشف ، غير أن هذا الثراء عاد على أهله بأكثر من مشكلة من أهمها :

**أولاً** : عدم التقدير الكافى من المسلمين - حكاماً أو محكومين - لقيمة ما لديهم من هذه الثروات ولعل من مظاهر ذلك أن طرق استغلالها فى أكثر الأحيان ليست بأيديهم بل بأيدى غيرهم .

**ثانياً** : إن ضعف المسلمين على المستوى العالمى ، وتخلفهم على المستوى الحضارى قد أطمع فيهم غيرهم حتى رأينا فى الأيام الأخيرة عيون الأعداء المفتوحة على المنطقة لتكون تحت سيطرتها التامة ، فلا تستغل الطاقة كسلاح فى أى موقف ، ولا يزال صدى الكلمة التى قالها الفيلسوف الإنجليزى " برتراند رسل" سنة ١٩٧٣يوم اتخذ العرب سلاح البترول كعامل حاسم ضد مصالح الغرب الذى كان يساند إسرائيل فى حربها مع العرب يرن فى آذان الواعين من أبناء أمتنا حتى يوم الناس هذا .

لقد قال بالحرف الواحد " إن البترول ليس ملكاً للعرب بل هو ملك للحضارة الإنسانية " وهذه النغمة هى التعبير الحقيقى عن نظرة الغرب إلى الشرق الإسلامى فى كل وقت مهما ادعى لنفسه النظرة المتعادلة إلى كل الأمم والشعوب .

**ثالثاً** : إن أكثر عائدات الثروة البترولية التى يتمتع بها عالمنا الإسلامى- لم توجه التوجيه الصحيح حتى تستثمر فى بلاد الإسلام - ولعل السبب فى ذلك راجع إلى عدم اطمئنان أصحاب رؤوس الأموال على أموالهم فى هذه البلاد لأنها لا تتمتع بقدر كاف من الاستقرار والأمن من الناحيتين السياسية والاجتماعية ، وهذه النقطة الحساسة قد أدركتها بعمق المؤسسات الاقتصادية فى بلاد الغرب ، فسعت إلى جذب رؤوس الأموال الإسلامية إليها . وعندما اطمأنت إلى ذلك ، بدأت تفرض شروطها بحيث لا تستطيع أية دولة مستثمرة من دولنا أن تسحب من أرصدتها لديها إلا فى حدود ضيقة ، وهذا يعنى : أن الثراء المزعوم الذى يقال إن عالمنا الإسلامى يتمتع به ، يصبح ثراءً على الورق لا فى واقع الحياة .

**رابعاً** : إن ما تحصل عليه البلاد الغنية فى العالم الإسلامى من ثروات وعائدات استثماراتها لا توزع داخل

بلادها التوزيع العادل - فضلاً عن الظن بتلك الثروات عن أن يكون لها امتدادها إلى البلاد الإسلامية الفقيرة - اللهم إلا فى حالات ضيقة ، ومن منظور المن والأذى غالباً مما أحدث نوعاً من الصراع الخفى أو الظاهر أحياناً داخل أية دولة من تلك الدول ، ثم من ناحية أخرى : أحدث نوعاً من الحسد والحقد عليها من الدول الفقيرة .

فإذا أضفنا إلى تلك الصورة سوء التخطيط وسوء الإدارة ، أو على الأقل عدم الوصول إلى تخطيط وإدارة ناجحين بعد فى عالمنا ، وما يترتب على ذلك من إهدار كثير من الخبرات الفنية والمهارات فى صناعاتنا لتبين لنا أن المشكلة تتفاقم أكثر .

وليس لنا أن نستطرد بأكثر من هذا ، فأكثرنا يعرف الحقيقة ، ولكن المهم أن نبين أن القوتين الثانية والثالثة يرجعان فى تأثرهما إيجاباً أو سلباً إلى القوة الأولى - قوة العقيدة - ومن ثم فقد حرص أعداء الإسلام على إيقاف

فاعليتهما بإيقاف فاعلية هذه القـــوة ، وذلك بالمحاولات المتعددة المظاهر التى تهدف إلى ترهين الرابطة بين الإسلام والمسلمين ، ونحن - للأسف الشديد - سريعو الاستجابة لما يخطط لنا .

ويبقى فى النهاية أن نقول : نحن على مفترق طريقين : طريق التخلف والتبعية وفقدان الذات والهوية ، وطريق العزة والكرامة والرفعة والتقدم . والفاعل فى هذا الطريق هو " الإسلام " القادر دائماً على أن يقود حياة المسلمين إلى الخير - إذا أحسنوا فهمه وعملوا على وجوده - كمنهج يقود حياتهم - ولو أن القوى الثلاث التى تحدثنا عنها تفاعلت مع بعضها كعناصر لمنهج حضارى لآتت أكلها . ووصولها إلى هذه الدرجة ، مسألة نملكها نحن المسلمين ، ولن نستورد من خارج بلادنا من يعلمنا كيف نعيد تشكيل عقولنا ونفسياتنا حتى ننهض بأمتنا ، ونحن نملك الرصيد الكفيل بذلك ، إن المسلم لن تنصره إلا اليد

المؤمنة التى أمن أصحابها بفاعلية وقدرة العمل الصالح . المرتكز على الإيمان على صياغة حياة شريفة كريمة ترتبط فيها النتائج بالمقدمات والآثار بالأسباب وترفض التواكلية الكئيبة التى تشل فعالية الأفراد والجماعات .

إن الظروف العالمية اليوم مهيأة أكثر من أى وقت مضى لاستقبال حضارة تتوازن فيها مطالب الإنسان . عبر عنها على المستوى الفكرى الفيلسوف الإنجليزى "برادلى " حين قال : إن العالم فى حاجة إلى دين جديد يحدد المصالح الإنسانية كلها ويقيمها على أساس تشريعى وتناسب ضرورى ، ويقدم للإنسان شعوراً وإحساساً يمكن أن يعتمد عليهما بكل ثقة ، كما عبر عنها على المستوى العلمى - العالم الفرنسى " دان دونواى " الذى خلع ثوب الإلحاد ترقباً لدين يملأ عليه أقطار نفسه ، كما نشهد اليوم على المستوى العالمى حركة رد فعل مضادة تهدف إلى العودة إلى الدين ، بعد أن فشلت كل المذاهب الاجتماعية

والقوانين الوضعية فى قيادة الحياة على نمط صحيح ، إن جيل الشباب الجديد فى أوروبا وأمريكا الذى آمن آباؤه وأجداده بنظريات " فرويد " و " دارون " يبحث الآن عن حركته وسكونه فيما يسميه " حركة المسيح " أو صحوة كرشنا " كذلك فى اليابان التى أصبحت فى ركب الدول الصناعية المتقدمة ، لقد آمن شبابها اليوم بأن تقدمهم الحضارى لم يقدم لهم سوى قيم مادية تجارية فى الوقت الذى يحتاجون فيه إلى قيم روحية تملأ عليهم فراغهم ، ولقد ساعد على هذا كله أن الاكتشافات العلمية المعاصرة قد سلمت بكل تأكيد بأن وراء العالم المادى المنظور قوة قادرة قاهرة ، وهذا فى حد ذاته كشف جديد ، يجعل العلم حركة إيجابية بالنسبة للدين .

ثم إن حركة المد الإسلامى فى بلاد الإسلام نفسها حقيقة لا تنكر ، وهى وإن لبست ثوب العنف أحياناً إلا أن إمكانية ترشيدها وتهذيبها قائمة ، وهذا وذاك

يبشران بإمكان بعث إسلامى جديد ، تتعانق فيه أشواق الروح مع مطالب الإنسان المادية ، لتحدث لديه التوازن الذى افتقده فى ظل أنظمة وضعية .

إن القرآن الكريم قد أشار إلى حقيقة باهرة ، يمكن أن تكون مفتاحاً لتغيير واقعنا ، إذا تغلغلت فى نفوسنا حتى تحدث ذلك التغيير الذي يتوقف عليه تعديل أوضاعنا ، وهى حقيقة ممتدة عبر الزمان والمكان ، بشرت بها كتب الله السابقة ، وأكدها القرآن الكريم ، قال سبحانه : **﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون* إن فى هذا لبلاغاً لقوم عابدين﴾**[1].

هذا وعد الله الذى لا يتخلف ، وتحققه ووقوعه مشروط بتحقيق معنى العبودية الصالحة لله رب العالمين ، وحتى

---

(١) الأنبياء : ١٠٥-١٠٦ .

نكون كذلك ، علينا أن نغير صياغة حياتنا كلها : الداخلية منها والخارجية ، والأولى هى المعنية أولاً بالتغيير على ضوء منهج الله الذى أراده لعباده الصالحين ، ويوم نرى أنفسنا على بداية الطريق الصحيح ، سيكون ذلك إيذانا بفجر مستقبل مشرق ، ينبثق عنه صبح يوم جديد لحضارة الإسلام﴿ **وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[1] صدق الله العظيم .

***وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ،،***

---

(١) الروم : ٦ .

# محتويات الكتاب

الموضــوع الصفحــة



مطابع الأهرام بكورنيش النيل